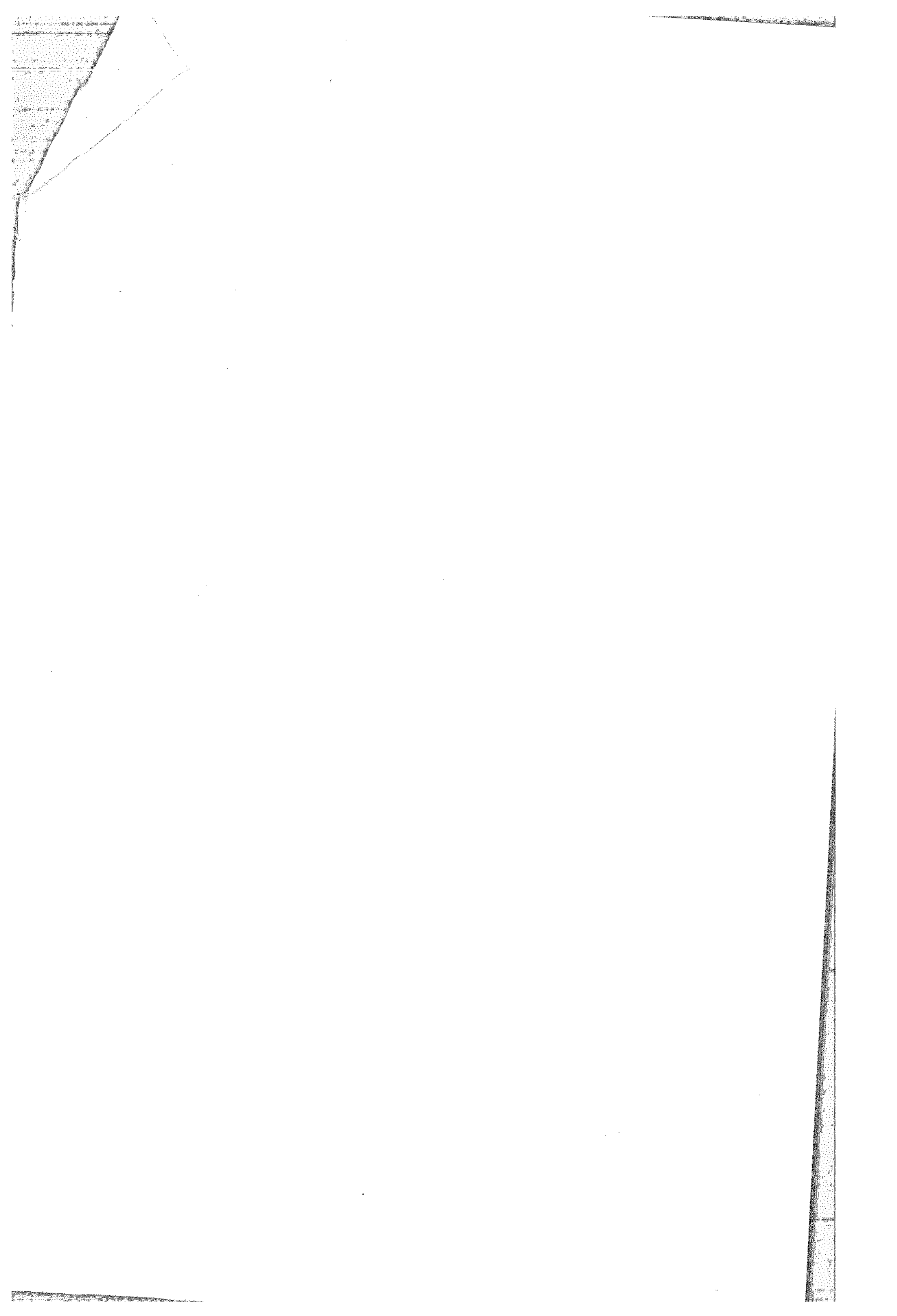

رواية
عبدو خليل
فندق بارون
مدونة أبو عبدو
دار الآداب
محترف

فندق بارون



عبدو خليل

فندق بارون

رواية

دار الآداب ـ بيروت

فندق بارون

عبدو خليل / كاتب سوري

الطبعة الأولى عام 2014

ISBN 978-9953-89-451-5



دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com







/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

لندن

عزيزتي هيلين:

لقد ساءت حالتي الصحِّيّة كثيرًا في الأسابيع الماضية، وقد أخبرني الطبيب أنّ السرطان احتلّ ما تبقّى من مساحات في صدري، لم أستغرب الأمر لأنّني منذ فترة بدأت أترنّح تحت عبء جسدي المتهالك الذي تحوّل حملاً ثقيلاً على روحي التوّاقة للخلاص منه. وربّما لا تتصوّرين كابنة تحبّ أمّها مدى فرحتي وسعادتي باقتراب النهاية التي تضع حدًّا لألمي. وكنت قد طلبت مرارًا من الطبيب التوقّف عن جرعات العلاج، إلّا أنّه أصرّ على متابعة مهمّته كطبيب.

ابنتي،

من على حافّة السقوط في المجهول، أكتب إليك وكلّي

شعور بدنوّ أجلي في الفترة القريبة، متمنّية أن يكون رحيلي هادئًا لا يعكّر صفو حياتك.

أعرف كم أتعبتك بمرضي وأنيني الدائم طيلة السنوات الخمس الأخيرة، لدرجة بتّ أنزعج منهما وأنا صاحبة الألم. سأكون سعيدة عندما أغلق عينيَّ على أبد الخلود، لذا لا أريدك أن تحزني طويلاً ولا لحياتك أن تتوقّف بسبب موتي.

وكم وددت مرارًا أن أتحدّث إليكِ، لكنّي لم أمتلك الشجاعة الكافية التي تمكّنني من الجلوس إليكِ ومكاشفتك ببعض الأمور، لذا قرّرت ترك رسالتي هذه.

ابنتي الغالية،

تركت باسمك مبلغ عشرة ملايين يورو في بنك HSBC، وباقي رصيدي تبرّعت به لصالح مراكز أبحاث السرطان بلندن. لا تنسي كما أوصيتك أن تدفنيني بجانب قبر زوجي سميث في مقبرة هايجيت. الأمر الآخر الذي أودّ مصارحتك به وهو المهمّ بالنسبة لك، بخصوص سؤالك الدائم عن والدك مجهول الهويّة. أكرّر اعتذاري منك عن هروبي الدائم طيلة السنوات الماضية من الموضوع. ولأنّني لا أريد أن يدفن معي هذا السرّ إلى الأبد، أودّ البوح به، بعد أن خبّأته عنك طويلاً.

في شتاء عام ١٩٧٥، زرت مدينة حلب في سوريا ضمن وفد طلّابي من جامعة لندن. تخلّيت عن العودة إلى لندن مع

المجموعة وأقمت في فندق بارون لأسبوعين إضافيين، تحديدًا في غرفة تقع في الزاوية اليمنى من الطابق العلوي، هي الغرفة التي تعرّفت فيها إلى والدك المجهول، وكنتِ ثمرة ذاك الحبّ العابر. وكما علمت من مطالعاتي الأخيرة، فإنّ كلّ شيء في هذا الفندق بقي على حاله. يمكنك يومًا ما إن شئتِ، زيارة حلب والإقامة في الغرفة نفسها من الفندق حيث أقمت.

ابحثي في سجلّات الزوّار عن ثلاثة أسماء هي في الحقيقة لثلاثة أصدقاء. الأوّل هو إسماعيل آغا وكان ملّاك أراض زراعيّة، والثاني بكري أفندي أعتقد أنّه تاجر زيت، أمّا الثالث إسحق فلا تسعفني الذاكرة بتذكّر عمله. أحد هؤلاء الثلاثة هو والدك.

عزيزتي هيلين

انتبهي إلى نفسك وحاولي أن تقلّلي من شرب الكحول والسجائر، وزوري قبري كلّما شعرتِ أنّك بحاجة لتبوحي بشيء ما، وأنا سأسمعك من عالمي البعيد.

والدتك كاترين

أواخر يناير ٢٠١١

بهدوء أعادت هيلين الوصيّة إلى داخل المظروف وأودعتها جوف حقيبة يدها. تنهّدت بقوّة، ثم ارتمت على الكنبة القريبة منها، قبالة صورة والدتها الجالسة على كرسي معرّق بزخارف

ذهبيّة، أمام زوجها الملياردير سميث الذي رحل باكرًا بحادث سير مروّع على الطريق السريعة بين لندن وويمبلدون، بعيد زواجهما بعشر سنوات أو أكثر قليلاً. سميث لم يكن بالنسبة لوالدتها رجلاً فحسب، وإنّما جرّة فخّار عملاقة متخمة بالكنوز. كانت هيلين دائمة التهرّب منه ومن دعواته للسهر وكان هو دائم الإلحاح عليها لمرافقتهما. وكثيرًا ما أمسكها من يدها وأجبرها بمزيج من المزاح والخبث على الذهاب معهما أيّام العطل والأعياد، حتى إنّه في إحدى المرّات قال لها بالحرف الواحد:

ـ ألا ترغبين برؤية والدتك وهي ترقص السْلوْ مع الشباب؟ هي لا تكتفي بذلك فقط، بل تتمادى أحيانًا في الالتصاق بهم لدرجة تثير انتباه كلّ الحضور.

يقول ذلك ويضحك ضحكة ماكرة تنمّ عن دهاء رجل استطاع خلال عشرين سنة أن يتحوّل من عامل صغير في معمل لصناعة الأقمشة، إلى منتج كبير يُحسب له ألف حساب في بريطانيا، وامتدّ كأخطبوط عملاق إلى عالم الدعاية والإعلان فبنى مؤسّسة صارت لها أذرع في كلّ المدن البريطانيّة.

أوكل سميث إلى كاترين إدارة شؤونه ومتابعة أعماله، إلى أن أقعدها المرض، فاضطر لبيع مؤسّسة الدعاية إلى أحد أثرياء مدينة مانشستر بعد أن يئس من إقناع هيلين بتولّي

قيادتها، خاصّة وأنّ دراستها للفلسفة خلقت لديها نفورًا كبيرًا من عالم المال والتجارة.

مسحت هيلين دمعتين صغيرتين خطّتا طريقهما رغمًا عنها، فتحت حقيبتها وأخرجت الوصيّة من جديد، أشعلت سيجارة وتأمّلت كلّ حرف فيها فبدت كمحقّق جنائي يتأكّد من صاحبة الخطّ، مع يقينها أنّها كُتبت بقلم الباركر الذهبي الذي أهداه سميث لوالدتها في عيد ميلادها الخمسين، فكانت لا تكتب أشياءها المهمّة إلّا بذلك القلم. أطفأت هيلين سيجارتها وتوجّهت إلى غرفة نوم كاترين، وقفت للحظات أمام الباب، لملمت كلّ جسارتها، وأدارت المقبض المعدني.

الغرفة غارقة في فوضاها. اللحاف مكوّم على الأرض كجثّة هامدة، كأس الماء نصف ملآنة على الطرابيزة الصغيرة، المخدّة المقعّرة مكان رأسها الصغير مرميّة في منتصف السرير، على الجهة اليمنى مزهريّة تدلّت بتلات أزاهيرها الملوّنة من حوافّها، وقد ارتسم في منتصفها خطّ كلسي أبيض بعدما جفّ ماؤها، وقريبًا من الحافّة قلم الباركر الذهبي مغلق نصف إغلاقة.

دارت هيلين حول السرير نصف دورة، التقطت القلم فسقط الغطاء وتدحرج على رخام الغرفة، تأمّلت ريشته وقد تيبّس الحبر الأزرق على نصلها الذهبي، قبل أن تعيد إليه

الغطاء وتودعه حقيبتها، متّجهة إلى الباب الرئيسي تهمّ بالخروج. رنّ الهاتف فأغلقت الباب وعادت إلى حيث الهاتف.

ـ ألو؟ أهلاً ليزا... أنا بخير... لا مشكلة، سأنتظرك فما زال لديّ الكثير من الوقت...

وضعت سمّاعة الهاتف وأسندت مرفقيها على الطاولة الواطئة في وسط الصالون. فكّرت بزيارة ليزا المفاجئة. منذ عدّة أشهر لم تتصل! انفكّت العلاقة الدافئة بينهما عندما تعرّفت ليزا إلى صديقة أفغانيّة شاطرتها شبقها الجنسي الذي بدا لها في مرحلة ما، كسرطان والدتها الذي استشرى في كلّ خليّة من خلاياها، لدرجة أنّها طلبت منها مرارًا أن تعيشا معًا. فهي لم تعد قادرة على التحرّر من جسدها، بحسب تعبيرها. ها هي الآن تعاود الاتّصال بها، تبحث عنها من جديد، فمن نبرة صوتها المسترخي أدركت هيلين أنّ ليزا في ذروة البحث عن مدارات الشبق وأنّها أومأت لها متواطئة.

إنّها لغة بلا مفردات تعتمد على إيحاء الإيحاء. فكلّما كانت مستسلمة هادئة، كانت كبحر هادئ ينذر بعواصف هوجاء لا تنتهي ما لم ترم ما في جوفها من حيتان وأسماك وطحالب. إنّه شكل من أشكال الانتحار، هكذا كانت ليزا تصف شبقها، قبل أن تدخل في دوّامة الصمت، فلا تعود

تتحدّث إلّا نادرًا، بقدر ما تتأمّل ما يجري من حولها، مكتفية بهزّ رأسها أو بالتعليق بكلمة أو كلمتين.

رنّ الجرس. بهدوء فتحت هيلين الباب فظهر وجه ليزا كقرص من زهر عبّاد الشمس، رطب وليّن من ضباب لندن.

ـ أهلاً ليزا... تفضّلي...

اقتربت ليزا منها وقبّلتها، فشعرت بقشعريرة خفيفة سرت في وجنتيها من برودة خدّيها...

ـ أنت مبلّلة، هل تمطر؟

ـ لا... لكنّ الضباب في ذروته هذا المساء...

جلست ليزا وقد بدا عليها الارتباك، إذ شعرت أنّ حدثًا غير عادي قد مرّ مرورًا ثقيلاً مخلّفًا وراءه رائحة غريبة عبّأت خياشيم أنفها الصغير. مرّت عينا هيلين المسترخيتان على ألم وأرق، كقطيع أيّل متعب على ساقي ليزا الهاربين من فتحة معطفها الجوخ الإنكليزي الداكن. تساءلت ليزا وقد غرفت ما يكفي من تفقّدها المكان بنظراتها:

ـ هيلين، هل ثمّة ما حدث؟

تبسّمت هيلين، ثم تنهّدت وعبّأت رئتيها بمزيج الهواء وعطر الياسمين الذي تضعه ليزا، قبل أن تهمس:

ـ أمّي...

التفتت ليزا إلى غرفة كاترين.

ـ لا تقولي لي إنّها...

هزّت هيلين برأسها مؤكّدة صحّة تخمينها، قامت ليزا ومشت إلى باب غرفة كاترين بحذر وكأنّها لا تريد إيقاظ الحقيقة الكامنة وراء الصمت الذي يسود أرجاء المنزل. ما إن فتحته، حتى لفحتها رائحة رطوبة الموت. تأمّلت السرير الفارغ وعلب الأدوية المبعثرة على الرفّ المجاور له، نادت بصوت مخنوق قبل أن ترتمي على طرف السرير، وأجهشت بالبكاء..

ـ يا لك من قاسية يا هيلين، لماذا لم تخبريني برحيلها؟ لماذا... إنّها أمّي أيضًا يا هيلين... أمّي... أمّي.

عبر فتحة الباب الذي راح ينسدل كستارة خشبيّة على المشهد، أخذت هيلين تراقب ليزا وهي تتلوّى في السرير كعصفور صغير ملسوع بلدغة أفعى، إلى أن أطبق الباب تيّار الهواء الجارف الذي صفقه بقوّة. بقيت هيلين مكانها وراحت تتلهّى بمراقبة دوائر الدخان التي راحت تتصاعد من لفافة التبغ بين أصابعها.

تذكّرت آخر لقاء بين ليزا وأمّها وكيف عبّرت لها ليزا عن مدى تعلّقها بها، هي التي فقدت والدتها أثناء فترة مراهقتها واضطرت للعيش في منزل عمّتها بناء على وصيّة المرحومة أمّها. عمّتها لم تمنحها من حنان الأمّ شيئًا يذكر واكتفت

بالصرف عليها، ثم دفعتها إلى الزواج من جاك السكّير الذي هجرها وسافر للعيش في أميركا مع صديقته الكوبيّة مونيكا. تعلّقت ليزا بكاترين، ملاذها الآمن كلّما واجهتها مشكلة. كانت كاترين تعرف كلّ ما يجري بينها وبين ابنتها في غرفة نومها، حتى إنّها في إحدى المرّات صارحتها بالقول:

ـ ليزا، لا أمانع العلاقة بينك وبين هيلين، شرط ألّا يكون ذلك على حساب أن تكون كلّ منكما أمًّا ذات يوم. الأنثى يا ابنتي لا تكتمل أنوثتها إلّا إذا أنجبت.

ضحكت ليزا غير مكترثة بالعمق الذي يطفح من كلمات كاترين كقشدة ملأى بالدسم، واكتفت بالقول:

ـ ماما كاترين.. والرجل كيف تكتمل رجولته؟

بحنكة المرأة الخبيرة التي اكتشفت كلّ جزر وخلجان الرجل، قطّبت كاترين جبينها العريض، رفعت نظّارتيها الصغيرتين عن عينيها الغائرتين في محجريهما، وببرودة أعصاب أجابت:

ـ الرجل ليست لديه عواطف... المرأة هي التي تصنع العواطف.. أمّا الرجل فهو يستهلكها فقط!

كانت ليزا تتمادى في شغبها، وهو ما كان يحبّبها إلى قلب كاترين التي كانت ترى فيها نفسها أيّام شبابها ونزقها.

ـ ماما كاترين. . . ما المانع أن أكون رجلاً. . .

كانت كاترين تشدّها من أذنها ممازحة، قبل أن تدلق فيها دلو توبيخها اللطيف الذي لم يكن في حقيقة الأمر سوى إعجاب بمشاكساتها لم تكن تنوي الإفصاح عنه.

ـ هذا أمر صعب. . . ستكتشفين ذلك بعد فوات الأوان. . .

كانت هيلين تأخذ دور المتفرّجة وتتظاهر أحيانًا بالانشغال بتحضير القهوة أو تجهيز طاولة الطعام، فيما هي تسترق السمع لحوارهما وتتابع بشغف ما يدور بين أمّها وبين ليزا. لقد استطاعت ليزا بفترة وجيزة أن تعوّضها عن ألف رجل، وكان بودّها لو تستطيع مصارحة أمّها باكتشافها هذا، إلّا أنّ الخجل كان يكبّلها ويمنعها من البوح.

انتبهت هيلين إلى لفافة التبغ التي ترمّدت بين أصابعها، فأطفأتها وقامت إلى غرفة أمّها حيث ليزا وقد انقطع هسيسها. فتحت الباب بهدوء، كانت ليزا ممدّدة على حافّة السرير وقد غطّت في نوم عميق. اقتربت منها وتأمّلت فوضى عبثها الممدّد على السرير، الوسادة المشدودة إلى صدرها، ساقيها الرفيعتين كعودي ثقاب تتدلّيان من طرف السرير، أصابعها الناحلة المنتهية بأظافر مصبوغة باللون الأسود وشعرها الأشقر المبعثر على الملاءة البيضاء. إنّها نائمة بكلّ ما للنوم من حفاوة

وسلطان. توجّهت هيلين إلى النافذة وأغلقتها بهدوء، أسدلت الستارة كما كانت تفعل قبيل كرنفالات لقاءاتهما، واقتربت وجلست بجانب ليزا على حافّة السرير.

حاولت أن تغطّي بطرف معطفها ساقها المحمرّة من لسعات تيّار الهواء البارد المتسرّب من النافذة، فشلت في سحب طرف المعطف، فتمدّدت قربها وأحاطتها بجسدها، ثم أغرقت وجهها في نقرة عنقها وتنفّست من مسامّاتها رائحة قديمة أيقظت فيها أحصنة راقدة في دفء إسطبلات الذاكرة. بسرعة راح يغزوها الصهيل ورائحة الحنين بعد طول فراق. من بعيد طاردها وجه أمّها، فانهال التراب كسيل جارف على حفرة عميقة في رأسها. من بين غبش الغبار، لمحت تلويحات أكفّ سوداء تماهت مع أفق لا لون له، إلى أن تحرّكت ليزا بين ذراعيها كفراشة محروقة الجناحين. حاولت أن تدير وجهها إليها، فاحتكّ شرشف الساتان بجوخ معطفها مصدرًا طقطقة شرارة خفيفة. ساعدتها هيلين في الاستدارة وشدّت برفق من تحتها كتفها الأيمن، فطلع وجه ليزا كقمر مغتسل في ضباب لندن الكئيب. أزاحت هيلين بأصابعها المرتجفة شعرها الملتصق بلزوجة مساحيق خدّيها، ثم حرّكت بسبّابتها صمت شفتها السفلى ورمّمت ما مسحه الشرشف من أحمر شفاهها. ابتسمت ليزا ابتسامة بلهاء وقرّبت رأسها من الشقّ الضيّق في فتحة فستان هيلين الأسود الذي بالكاد يُظهر خطًّا يرسم الحدود

الفاصلة ما بين نهديها. دفنت أنفها الصغير في الفتحة وأخذت شهيقًا عميقًا هزّ أركانها. شدّتها هيلين بقوّة إلى صدرها ومسحت وجهها بشعرها، ثم أبعدتها قليلاً وفكّت الزرّ الوحيد في معطفها الثقيل، فتخلّصت ليزا منه كأفعى رفيعة انسلخت عن جلدها السميك. مدّت هيلين يدها إلى ظهرها وسحبت جرّار فستانها، فانزلق بهدوء على رخام ظهرها، بينما كانت عيناها تتابعان ليزا وهي تحاول الاختباء تحت إبطها الأيسر. شدّت هيلين فستانها وسحبته بقدميها إلى حافّة السرير السفليّة، فسارعت ليزا إلى فكّ مئزرها وصارت عارية إلّا من قميص ليكرا خفيف راح يرتفع كاشفًا عن نهديها المتحجّرين.

مدّت ليزا يدها إلى المثلّث الدافئ ما بين ساقي هيلين، أمسكته بكلّ ما أوتيت من قوّة وشدّته إلى الأعلى، فتلوّت هيلين وهي ترفع جسدها وتقترب لتضع حلمتها اليسرى بين شفتي ليزا التي أطبقت عليها بأسنانها الصغيرة. على غير عادتها، دخلت هيلين هذه المرّة دائرة شبق ليزا بلا مقدّمات تذكر. هي عادة تكابر، تتحرّك أمام ليزا جيئة وذهابًا، تتلهّى تارة بإحضار كوب ماء وتارة أخرى بدخولها الحمّام، حتى إنّها في مرّات كثيرة كانت تقطع على ليزا استرسالها، بحجّة أنّها سمعت صوت أمّهاالمريضة تنادي عليها. تذهب لتتأكّد، ثم تجلس على الكرسي القريب من السرير تشعل سيجارة وهي تتأمّل ليزا الغارقة في مداعبة عريها. تضحك وتقول لها بازدراء:

ـ يا لكِ من ساقطة... كلّ رجال العالم لا يستطيعون ملء جوفكِ الخاوي.

كانت هذه الكلمات تكفي ليزداد هيجان ليزا وغليانها كإبريق شاي يشقّ صفيره المكان، فتتوسّل إليها بأن تأتي.

ـ تعالي... لم أعد أحتمل... انظري، هذا كلّه لك.

تقول ذلك وهي تلثغ يمينًا ويسارًا بطرف لسانها رأس حلمتيها الورديّتين، فتقفز هيلين على السرير، تقف قبالتها وتترك لها حرِّيّة الالتصاق بالهضبة المرتفعة ما بين فخذيها والنزول حتى أخمص قدميها.

هذه المرّة، وصلتا للذروة سريعًا، وفي آن واحد استسلمت كلتاهما لنبض ذراع الأخرى. ولولا الساعة الصغيرة على الطاولة المحاذية للسرير التي راحت تدقّ مسامير منبّهها في أذنيهما، لما فتحت الاثنتان عينيهما.

ابتسمت هيلين ومسحت بأصابعها جبين ليزا.

ـ هذا منبّه دوائها... لا يعرف أنّه قد فات وقت طويل على رحيلها.

طبعت ليزا قبلة على خدّها، ثم ضمّتها إلى صدرها في محاولة منها لحملها خارج دائرة الحزن.

ـ إنّها الآن ترقبنا من برجها العالي... وتطلب من

الملائكة أن تغفر لنا... سأحضِّر القهوة ريثما تنتهين من توضيب الغرفة.

بتثاقل، حملت ليزا معطفها ومئزرها القصير وخرجت عارية من الغرفة. ارتدت هيلين فستانها الأسود ثم توجّهت نحو المرآة على الخزانة، أدارت ظهرها محاولة سحب الجرّار، فوقعت عينها على صورة أمّها المعلّقة على الجدار. أشاحت بوجهها نحو الجهة الأخرى وسحبت جرّار الفستان ثم رتّبت شعرها على عجل. عاود المنبّه رنينه فاقتربت منه ومدّت إصبعها تنوي إيقافه، لكنّها أبقت يدها معلّقة في الهواء. وقفت ليزا في الباب وقالت:

ـ اتركيه، هذا كلّ ما بقي من نبض في غرفتها... سيتوقّف عندما يتعب... تعالي القهوة جاهزة...

استعادت ليزا نشاطها وحيويّتها. جلست هيلين قبالتها وتحاشت النظر إليها. أخذت ليزا تتمرّى في مرآة صغيرة أسندتها إلى حافّة طبق فنجانها، رشفت قهوتها وقلبت المرآة على قفاها ثم سألت:

ـ ها قد أصبحتِ وحيدة... كيف ستتدبّرين أمورك في غياب الماما؟

تلهّت هيلين بسيجارة بين أصابعها راحت تقلّبها وتتأمّلها إلى أن أشعلتها، نفثت دخانًا كثيفًا من منخريها، حرّكت بجذوة السيجارة رماد المنفضة، ثم رفعت رأسها وهي ما تزال

مسترسلة في عبثها بالرماد.

ـ سأذهب قريبًا إلى حلب. . .

ـ حلب؟ تقصدين مصر؟

كانت هيلين تعرف جيّدًا مدى ضحالة ثقافة ليزا، فهي بالكاد أنهت معهد السكرتاريا وكلّ قراءاتها كانت منصبّة على الروايات الغراميّة والبوليسيّة ومتابعة أخبار النجوم. رفعت هيلين رأسها وردّت بحدّة:

ـ حلب في سوريا. . . قريبًا من تركيا والعراق. . .

ـ العراق؟ هل أنت مجنونة. . . لا أصدّق ما تقولينه.

ضحكت هيلين بصوت عال، لأوّل مرّة منذ أن رحلت والدتها.

ـ سوريا وليس العراق. . . هنالك فرق.

هزّت ليزا يدها في الهواء طاردة دخّان سيجارة هيلين الذي ملأ الصالون، ثم ارتاحت في جلستها ووضعت ساقًا على ساق.

ـ لن أتركك تغادرين لندن. ثم. . ثم لا تنسي أنّي محتاجة إليكِ.

أدركت هيلين أنّ ما كانت تحلم به ليزا يبدو لها الآن أقرب إلى التحقّق، خاصّة وأنّ حجّتها قد سقطت بعد رحيل أمّها. لن تفلت ليزا فرصة العيش معها تحت سقف واحد هي

التي تملك من العناد ما يكفي لبناء إمبراطوريّة من أحجار النرد الصغيرة.

رمت ليزا صنّارتها مجدّدًا وبشكل مباشر هذه المرّة، إذ أخذت تسرد لها خلافها مع صديقتها الأفغانيّة جيهان.

ـ تركتني جيهان في منتصف الطريق. هؤلاء الشرقيّون لا يمكن أن تثقي بهم، فهم لا يملكون الجرأة في اتّخاذ المواقف. تصوّري قرّرت الزواج من شابّ باكستاني تعرّفت إليه صدفة، هكذا بسرعة، وقالت إنّها ربّما ستتحجّب. أتوقع أن يكون خطيبها إرهابيًّا من القاعدة، لقد أرتني صورته، يشبههم كثيرًا، وجهه مجعّد كأحذية المهرّجين وكرشه يسبقه، قصير وقبيح، لا أدري ما الذي أعجبها فيه.

توقّفت ليزا بعدما لاحظت لامبالاة هيلين. شغلت نفسها بتنظيف أظافرها بقطعة قماشة بيضاء أخرجتها من حقيبتها. بين الفينة والأخرى، كانت تمدّ يدها بعيدًا عن عينيها مباعدة ما بين أصابعها وهي تستطلع وجه هيلين، علّها تقرأ ردّ فعلها على كلماتها. لكن هيلين لم تحرّك ساكنًا، فشعرت ليزا بالتوتّر، رمت قطعة القماش جانبًا، عدّلت من جلستها، واستجمعت قواها لتدكّ أبواب صمت هيلين مجدّدًا.

ـ من الذي أدخل فكرة السفر إلى رأسك؟

قالتها بحدّة وحزم وعيناها لا تحيدان عن هيلين التي مالت

إلى الأمام وكأنّها رأفت بحالها بعدما لاحظت مكابدتها في استنطاقها، فقرّرت أن تجيبها بنبرة مفعمة بروح التصالح.

ـ ليزا.. أنا أسافر بناءً على وصيّة أمّي...

نفضت ليزا رأسها مستفهمة كإوزّة التقطت أخيرًا شيئًا من قاع البحيرة العميقة، فتطاير شعرها الأشقر على كتفيها.

ـ بناء على وصيّة أمّك؟ وما علاقة حلب بأمّك؟

ـ ليزا هذا موضوع طويل... سأذهب إلى حلب لفترة قصيرة وبعد عودتي ربّما أكون مهيّأة أكثر لتحقيق حلمك بالعيش معًا. سنترك الأمر لما هو آت من الأيّام...

كلمات هيلين المغموسة بزيت الحنين برّدت قلبها وأزاحت عنها غيمة سوداء كادت أن تمطر بغزارة.

ـ لا تطيلي غيابك عنّي... أخبار الشرق لا تسرّ... وهم أناس لا يؤتمن جانبهم... وبصراحة أنا قلقة من سفرك هذا...

قطعت عليها هيلين مخاوفها حين وقفت وحملت حقيبة يدها، ثم مدّت يدها إليها:

ـ اذهبي معي إلى السوق.. تلزمني بعض الحاجيّات.. وربّما أحجز تذكرة لسفري...

خرجت الاثنتان تاركتين ساعة المنبّه في غرفة كاترين تستسلم بعدما انهار عزم مدخرتها من فرط الرنين.

كان الضباب يتسرّب في شارع بورتوبيلو كلصّ ظريف، مزاحمًا أقدام المارّة وهم يطرقون بلاط الرصيف النديّ. شدّت هيلين ذراع ليزا طالبة منها التوقّف أمام محلّ لبيع الألبسة. تأمّلتا فستانًا صيفيًّا قصيرًا بلون أزرق انجذبت إليه هيلين:

ـ ما رأيكِ، لونه جميل وخفيف يليق بالمناطق الدافئة!

أبدت ليزا إعجابها أيضًا، لكنّها اعترضت على طوله.

ـ قصير... ربّما سبّب لكِ مضايقات في...

حاولت أن تتذكّر اسم المدينة. تجمّدت ذاكرتها. عاجلتها هيلين.

ـ حلب... تعالي لندخل...

دخلت الاثنتان وتجوّلتا في فناء المحلّ الواسع. طلبت

هيلين من البائعة رؤية الفستان المعروض في الواجهة وتسلّلت ليزا إلى ركن داخلي خاصّ بالألبسة الداخليّة. فردت البائعة الفستان الأزرق أمام هيلين فأخذته ورفعته من علّاقته عاليًا وهي تتفحّصه بإعجاب، قبل أن تطلب من البائعة أن تصرّه لها. سألتها إن كانت رأت صديقتها، فأشارت إلى ردهة خلفيّة.

كانت ليزا غارقة في بحثها المضني عمّا يشبع غريزتها التي تشبه قربة ماء مثقوبة لا ترتوي أبدًا. اقتربت منها وهمست:

ـ كلّ هذه الإثارة... ارحميني، لا أستطيع أن أتخيّلك وأنت ترتدين هذا الجلد الأحمر.

التمعت عينا ليزا، وبمكر قالت.

ـ الأحمر لي... والأسود هذا لكِ... ما رأيك؟

هزّت هيلين رأسها موافقة، ثم طلبت منها الاستعجال في اختيارها.

ـ ... هيّا لقد تأخّر الوقت...

حملت ليزا علّاقتي الثياب ولحقت بهيلين التي دفعت الحساب على عجل، ثم خرجتا إلى الشارع الذي تكاثف ضبابه على بلّور واجهات المحلّات وراح يرسم خطوطًا مائيّة ملتوية.

تأبّطت ليزا ذراع هيلين التي انفرجت أساريرها وتغيّرت

ملامحها وكأنّها جاوزت للتوّ محنتها.

ـ ما بكِ مستعجلة؟ هل ثمّة أمر ما...

هزّت هيلين رأسها بالإيجاب، ثم أشارت بيدها نحو آخر الشارع.

ـ هناك محلّ لبيع البوظة... كانت أمّي، كلّما مررنا من هنا، تدعوني لتناولها.

أفلتت ليزا ذراع هيلين وحوّلت أكياس النايلون إلى يدها الأخرى، ثم هزّت يدها المتعبة لتطرد رتلاً من النمل الناعم كان دغدغ رؤوس أصابعها.

ـ هيّا بنا... مع أنّي أعاني من التهاب بلعومي منذ أشهر...

ضحكت هيلين ملء فمها وهي تنظر حولها إن كان ثمّة من انتبه إلى ضحكتها المجلجلة. وصلتا محلّ البوظة، دخلت هيلين وارتمت ليزا على أقرب كرسي تاركة الأكياس تسقط من يدها. نظرت هيلين من خلف زجاج المحلّ إلى الشارع الذي بدأ ينقشع عنه الضباب شيئًا فشيئًا.

ـ هل تعلمين ليزا... كانت أمّي تجلس هنا على هذه الطاولة، تستمتع بأكل البوظة وهي ترقب المارّة بعينيها الداكنتين، من خلف هذا الزجاج!

قطعت عليهما نادلة المحلّ حديثها وسألتهما:

ـ ما نوع البوظة التي ترغبان بها؟

بوظة الكرز، سارعت ليزا تقول، ووافقتها هيلين. وضعت ليزا مرفقيها على الطاولة وراحت تتأمّل المارّة من خلف الزجاج، ثم سألت هيلين من دون أن تلتفت إليها.

ـ لم أكن أتوقّع أن تسافري بهذه السرعة... ولم أفهم سرّ استعجالك هذا!

وضعت النادلة أمامهما دورقين صغيرين مليئين ببوظة الكرز. استسلمت هيلين لدورق البوظة إلى أن تصاعدت البرودة إلى جبينها وأحسّت بشرارة ألم، فتركت الملعقة جانبًا مبدية استسلامها وعدم قدرتها على إكماله، في حين كانت ليزا تبحث عن حبّات الكرز المتجمّدة بين ثنايا دورقها الذي ما زال مليئًا. سحبت هيلين منديلاً أصفر صغيرًا من العلبة المرميّة على طرف الطاولة، وسعلت بهدوء قبل أن تقرّر أخيرًا الإجابة عن سؤال ليزا.

ـ استعجالي بالسفر هو من أجل البحث عن أبي. سبق وأن حدّثتك عن قصّتي.. ما زال أمامي يومان وأعدكِ أن لا أفارقكِ خلالهما لحظة واحدة.

ارتسمت ابتسامة على وجنتيْ ليزا، فأكملت هيلين حديثها وقد طفح وجهها بسرور غامر، بعدما عبرتها موجة الصداع البارد.

ـ ما رأيكِ! هل أعجبتك البوظة؟

تركت ليزا من يدها الملعقة، وهمست لها بإثارة بعدما مالت برأسها نحوها.

ـ لا شيء يطفئ لهيبنا غير الفراش...

فتحت هيلين حقيبتها وأخرجت قطعة ورقيّة من فئة الخمسة جنيهات وضعتها على الطاولة، ثم نهضت وأشارت لليزا بالخروج.

ـ هيّا... قبل أن يفتضح أمرنا... أعرف أنّ ما في الأكياس يثير لعابك أكثر من البوظة. هيّا قبل أن تمطر السماء.

حملت ليزا الأكياس ولحقت بها وهي تسأل:

ـ إلى مكتب التذاكر؟

فردّت هيلين وقد حثّت خطاها:

ـ إلى البيت، لقد تأخّر الوقت.

مشتا مسرعتين إلى زاوية الشارع، استقلّتا سيّارة أجرة ماركة كاديلاك قديمة الطراز، جلستا في المقعد الخلفي. طلبت هيلين من السائق التوجّه إلى حيّ نوتينغ حيث منزلها، فقاطعتها ليزا وطلبت من السائق تغيير الوجهة إلى نيوهام حيث تسكن هي. نظرت في عينيْ هيلين وعضّت على شفتها ثم أردفت بصوت خافت:

ـ عمّتي مسافرة ومن حقّي أن أحتفي بكِ قبل سفرك...

بالشكل الذي أرغب فيه. . .

حكّ سائق التاكسي العجوز رأسه من تحت قبّعته الصوفيّة الثقيلة وسأل بلطف: هل اتّفقتمان حتى لا أغيّر الوجهة مرّة ثانية، فقطعت ليزا على هيلين الطريق وردّت على السائق مقرّرة وجهتهما النهائيّة: إلى نيوهام، لو سمحت.

استرخت هيلين في المقعد وراحت ترقب الأضواء من زاوية صعبة في نافذة السيّارة. بدت ليزا سعيدة بعدما أقنعت هيلين، هكذا بسهولة، أن تنقاد إلى منزلها دونما جدال، كما كانت تفعل أيّام زمان. كانت هيلين كثيرًا ما تتضايق من نظرات عمّتها التي لم تكن راغبة أصلاً في علاقتها مع ليزا، إلّا أنّها الآن في إجازتها الصيفيّة التي تقضيها على الأغلب في الهند. عمّتها مغرمة بالهند لدرجة أن من يدخل منزلها يخال نفسه في أحد بيوت ضواحي بومباي أو كشمير. . .

أبعد السائق عن وجهه المتعب قبّعته الصوفيّة وسأل عبر المرآة الأماميّة:

ـ هل أتابع في هذا الشارع أم نلفّ إلى اليمين؟

ـ لو سمحت إلى اليمين. . . سننزل في نهاية هذا الشارع. . .

أدار السائق العجوز المقود بسرعة جهة اليمين متداركًا الموقف، فمالت ليزا على هيلين التي سندتها بابتسامة من فوق كتفها الأيمن. همست ليزا قبل أن تعدّل من جلستها:

ـ البوظة أرخت أوتار أعصابي. . . كأنّني آلة كمان لا تصلح للعزف.

أدركت هيلين أنّ ليزا بدأت بلعبة استدراجها. تلك هي عادتها. تبدي أوّلاً تعبها، ثم ترسم حول عينيها هالة من الحزن تخبّئ فيه مجونها الذي يُفتضح أمره ما إن يوصد باب الغرفة. هنا تتحوّل لفتاة ثانية تحار من أين تبدأ. حتى إنّها في إحدى المرّات، أمسكت بيدها طرفي ياقة قميص اشترته للتوّ وشدّت، فتطايرت أزراره في كلّ الاتّجاهات. تخلع بنطالها وترميه عاليًا، قبل أن تشدّ طرفي سروالها الداخلي فترتسم على صفحته ضفّتا فرجها الصغير: انظري إليه. . . يكاد يمزّق السروال. . . تدير ظهرها وترفع مؤخّرتها للأعلى: هل وجدت كوكبًا بهذا الشكل؟ كولومبوس ليس أفضل منك، اكتشفيه ليسجّل التاريخ اسمك. . .

نزلت ليزا بينما كانت هيلين تدفع أجرة التاكسي. وقبل أن تصلا إلى باب الشقّة، سألتها هيلين:

ـ متى تعود عمّتك؟

ـ اتّصلت البارحة. . . ربّما تتأخّر أسبوعًا آخر. . . وقد لا تعود أبدًا.

تعجّبت هيلين من جملتها الأخيرة، فسارعت تستفسر عن مغزاها.

ـ قد لا تعود. . . لم أفهم. . .

تجاهلت ليزا كلماتها، فتحت الباب ودخلت بسرعة لترمي الأكياس من يدها. جلست على كرسي بالقرب من الباب وهي تهمّ بخلع حذائها. كرّرت هيلين سؤالها، فضحكت ليزا من سذاجتها ورمت بفردة الحذاء عاليًا:

ـ قد تسقط طائرتها في البحر... عندئذ لن تعود أبدًا...

أشاحت هيلين بوجهها ممتعضة من تكهّناتها التي لا معنى لها، ثم جلست على الكنبة الصفراء ورفعت ساقيها المتعبتين عاليًا لتسندهما على الطرف الآخر من الكنبة، أمّا ليزا فتوجّهت إلى المطبخ. نادتها هيلين فردّت أنّها تجلب النبيذ وسألتها إن كانت جائعة. أجابت هيلين بأن لا، وسألت إن كان لديها رقائق البطاطا...

نهضت هيلين وتوجّهت إلى المطبخ الضيّق، المليء بالرفوف المحمّلة بعلب صغيرة من شتّى أنواع البهارات، أسندت كتفها إلى باب المطبخ وقالت:

ـ أتعلمين ليزا لماذا كنت أكره هذه الكنبة الصفراء في الصالون؟

أغلقت ليزا باب البرّاد بركبتها وهي تحمل بين يديها زجاجة نبيذ وعلبة بطاطا وسمكًا مملّحًا، والتفتت إليها وهي تهمّ بالخروج.

ـ لأنّ عمّتي كانت تجلس عليها، هل لديكِ سبب آخر؟

أحضري الأقداح والمنفضة الكبيرة قبل أن تطلقي العنان لمدخنتك. . .

امتثلت هيلين. بهدوء توجّهت إلى الرفّ، حملت قدحين وبحثت عن المنفضة الكبيرة التي اشترتها ليزا خصّيصًا لها، ثم عادت إلى الصالون وجلست على الكنبة الصفراء بجانب ليزا التي ناولتها كأس نبيذ.

ـ تفضّلي. . . أجمل ما في الفرنسيين أنّهم يتقنون صناعة النبيذ.

ـ ونحن ما أجمل شيء لدينا؟

ـ نحن علّمناهم شرب النبيذ. . . نخبك. . .

رفعت هيلين كأسها إلى فمها وهي ترقب شفتيْ ليزا وهما تصطبغان بالأحمر القاني. أخذت دفقة من النبيذ بكي حلقها بهدوء، أتبعتها بأخرى. عصفت بها ريح الحموضة فاسترخت على المخمل الأصفر فوق الكنبة وخالت للحظات أنّها تتأرجح من تحتها. لاحظت ليزا أنّ صديقتها أغمضت عينيها عن الكأس الذي راح يتمايل بين أصابعها فسارعت إلى أخذه ووضعته على الطاولة، ثم وقفت وحملت الأكياس وتوجّهت إلى غرفتها. تنبّهت هيلين لغيابها، إلّا أنّها عادت تشبك رمشيها الطويلين كصفّين من الراقصين المتعبين، ثم ولجت حلمًا أمسكها من يدها وأخذها إلى نفق طويل يمتدّ أمامها

كبلعوم غليظ ينزّ من جدرانه هلام له صفرة القيح ورائحة الدم. راحت هيلين تمشي عارية وسط اللزوجة التي تطلع من بين أصابع قدميها الصغيرتين، كأخطبوط عنيد يستطيل كلّما رفعت قدمًا ووضعت أخرى. وبين الفينة والأخرى، يصفّق طير بجناح واحد ثم يدور حول نفسه بشكل حلزوني ويختفي في العتمة، تاركًا صداه يترنّح في عمق دهاليز النفق.

استجمعت هيلين قواها وزادت من حركة قدميها فازدادت غوصًا، وأخذ العرق يفتح دروبًا قصيرة تحت إبطيها متسلّلاً إلى منخفض سرّتها، مكملاً طريقه من تحت فستانها الأسود وموغلاً في التفاصيل الصغيرة ما بين ساقيها. أخذها هذيان التعب. ردّدت أغنية. جفّت الكلمات على ملوحة هالة بيضاء أحاطت بشفتيها. وقفت برهة. أصاخت السمع. كأنّه صوت أمّها كاترين. مشت قليلاً. جاءها الصوت من جديد. إنّه صوت أمّي... نعم هذا صوتها... حاولت السير مجدّدًا وسط الهلام اللزج، سبقت قامتها النحيلة ساقيها، مالت كتمثال خشبي من على قاعدته الصلدة ثم سقطت. صرخت وهي تهوي ماما... ما.. ما....

فتحت ليزا الباب بقوّة على هدير صوتها وهي بكامل إثارتها، ركضت نحوها شبه عارية وصرخت هيلين... هيلين عزيزتي... ارتمت على الكنبة الصفراء بجانبها، وفوجئت

بالعرق يغسل جسدها، سألتها غير مصدّقة عينيها: أنت متعرّقة كثيرًا، ما بك؟ شقّت هيلين جفنيها الناعسين فصدمها اللون الأحمر الذي شعّ من حمّالات صدر ليزا، نزلت بنظرها إلى سروالها الداخلي وجلده المشدود على تفاصيلها، ثم لمحت عينيها وقد رسمت حولهما دائرتين بحجم الكفّ، سواد محاط بخطّ أخضر من القصب الفضّي اللامع.

وضعت هيلين رأسها على فخذ ليزا، داعبت بأناملها ركبتها، أحنت ليزا رأسها وراحت كسكّاب ماهر تصبّ كلماتها الدافئة في أذنها، ثم أخذت تفرك صيوانها بعناية فائقة بين أصابعها الرفيعة وهمست في أذنها قبل أن تطبع قبلة على خدّها: كنت تحلمين. رفعت هيلين رأسها قليلاً بعدما شعرت أنّ خدّها المتعرّق التصق تمامًا بفخذ ليزا وأخذت الملوحة تكوي جلده الرقيق، فوقع وجهها بين براثن عيني ليزا المسوّرتين بدائرتي السواد. سألتها: هل نذهب إلى السرير؟ نقلت هيلين نظرها نحو سرّتها المعلّقة كتذكار ثمين بخاتم الفضّة الذي أهدته إيّاها في عيد ميلادها الثلاثين. مدّت إصبعها وداعبته بطرف أظفرها الطويل، وراحت تصغي لرنين الفضّة وهو يردّد صداه داخل أحشائها. تمادت في استمتاعها باللعبة، فأرخت يدها لتسقط كعصفور صغير في الوادي الضيق ما بين فخذيها، حيث سروالها الجلدي أحمر اللون وقد التصق بها بإحكام بعدما شدّ الخناق على تضاريسها التي كانت تصرخ

بصمت، وكأنّها تحاول الإفلات خارج حدود الأحمر الذي يكبّلها. جسّت برؤوس أصابعها حرارة الجلد الأحمر، بدا وكأنّه يغلي على جمر. بلطف داعبته، تحوّل بين أصابعها إلى كرة زئبق يستحيل الإمساك بها.

ـ هيلين. . . في السرير سيأخذ حلمك شكل الحقيقة.

تذكّرت هيلين حلمها، مرّ أمامها كشريط سينمائي، سمعت صوت أمّها تناديها. أعادت كرّ الشريط. أتاها الصوت هذه المرّة ممزوجًا بصوت ليزا وهي تكرّر اسمها:

ـ هيلين. . . هيلين. . .

امتزج الصوتان، فنهضت ومشت وسط الهلام في نفق حلزوني مظلم وطويل.

سحبت ليزا يدها من تحت خصر هيلين العاري ونظرت إلى الساعة، الثامنة والنصف. ما زال الوقت مبكرًا. أيقظت حركتها هيلين التي مالت على جنبها، فمدّت ليزا يدها إلى صدر هيلين، وفركت حلمة ثديها الأيمن، ثم توسّدت كتفها وقالت:

ـ أمامك أكثر من ستّ ساعات للسفر. . استرخي قليلاً، ستكون رحلتك طويلة.

لفّت إحدى ساقيها على ساقي هيلين المستلقية على

ظهرها، وهزّت يدها الرابضة على صدرها المنهك من السهر طوال اليومين الماضيين، ثم تسلّلت إلى تفاصيلها عبر دروب حفظتها عن ظهر قلب. وما إن وصلت إلى سرّتها، حتى سارعت بالقفز كضفدع مائي اكتشف مستنقعًا مليئًا بالأشنيات والطحالب. قالت بعدما أمتعها بلل أصابعها:

ـ أنت مبتلّة... لدينا متّسع من الوقت لجولة أخرى.. ما رأيك؟

تبسّمت هيلين بخبث وأبقت عينيها معلّقتين في سقف الغرفة تتأمّل السلّم الذي أسقطه الضوء المتسلّل عبر شرائح الستارة المعدنيّة. أبعدت رأس ليزا بلطف:

ـ يجب أن أذهب للبيت، ما زال لديّ عمل كثير.

أنهت جملتها ثم أمسكت بأصابع ليزا التي كانت تتحرّك بخفة ما بين فخذيها وسحبت يدها على مهل، قبّلتها ونظرت إلى الساعة التي كانت تهرول نحو التاسعة، ثم احتضنتها فتحوّلت ليزا بين ساعديها إلى إسفنجة مثقلة مشرّبة بشتّى أنواع العطور. ضحكت هيلين وقالت بصوت عال:

ـ أنت أكثر شراسة من ذي قبل.. تحتاجين رجلاً بقوّة مائة حصان.

ـ الرجال كريهون كالسمك الفاسد.. النساء أجمل.. هل

تتذكّرين صديقتي جيهان الباكستانيّة؟

ـ أتذكّر شيئًا من تفاصيل وجهها.. سمراء.. شعرها طويل...

قاطعتها ليزا بوابل كلماتها.

ـ كانت أقوى من أيّ رجل تعرّفت عليه.. حتى فيليب لاعب البيسبول، كانت جيهان أقوى منه.. كنّا نمضي معًا ساعات طويلة.. لم تكن تعرف التعب..

توقّفت لبرهة، بعدما وجدت هيلين منشغلة بالبحث عن شيء ما بدأ يضايقها، سحبت حمّالة صدرها من السرير ورمتها جانبًا، ثم عادت تصغي إليها.

ـ النساء الشرقيّات أقوى من رجالنا المنهكين من شرب الكحول ولعب القمار. جيهان كانت لا تكتفي معي بجولتين أو ثلاث، كنت أشعر بلذّة غير عاديّة في الالتصاق بجسدها المليء والموت بين ذراعيها. هل أنت قادرة على تصوّر ذلك، كانت رغبة غامضة تجتاحني كلّما اختلينا ببعض.

غطّت هيلين وجهها بالمخدّة الناعمة وسقطت مجدّدًا في النفق الحلزوني الطويل، حيث العفونة ورائحة القيح والدم. تحوّلت هذه المرّة إلى كرة مطّاطيّة لا تتوقّف عن الارتطام بطرفي النفق. أخذها الدوار. حاولت إيقاف تساقطها. لم تفلح. أجهشت بالبكاء وارتفع صوت نحيبها كفاصل موسيقي صاخب، أمام ذهول ليزا التي ربتت على كتفها بحنان:

هيلين.. أنا آسفة.. هيلين عزيزتي.. أرجوكِ.. الحياة تمضي نحو الأمام... كلمات ليزا وإلحاحها الدؤوب كي تتوقّف عن البكاء جعلتها تمسك بأحد خيوط تماسكها. توقّفت عن نحيبها وراحت تمسح خدّيها بمحارم ورقيّة، بينما نهضت ليزا عارية وتوجّهت للمطبخ وهي تقول مازحة: ما رأيك بكوب من الشاي يشبه شاي عمّتي، ريثما تنتهين من ارتداء ملابسك.

فتّشت هيلين في فوضى الغرفة عن ملابسها، ارتدتها وذهبت إلى الصالون حيث جلست على الكنبة الصفراء بعدما استعادت كامل حيويّتها. دخلت ليزا عارية تحمل كوبيْ شاي وضعتهما على الطرابيزة الصغيرة، ثم توجّهت لغرفة النوم لترتدي ثيابها.

خرجت ليزا من غرفتها وهي تنظر إلى ساعتها التي كانت ترمي بظلالها إلى العاشرة وبضع دقائق: يبدو أنّنا تأخّرنا قليلاً... هل تحتاجين إلى وقت طويل لتجهيز أغراضك؟ أطفأت هيلين سيجارتها التي ما زالت في منتصفها، تناولت حقيبتها وقبل أن تنهض قالت: أغراضي جاهزة، فقط أحتاج لتوضيبها داخل الحقيبة. التقطت ليزا حمّالة مفاتيحها من فوق الطاولة، وخرجت الاثنتان تاركتين كوبيْ الشاي الدافئين لبرودة الصالون الداكن الذي لا يعكّر صفوه إلّا لون كنبة صفراء.

في الطريق إلى الطرف الغربي من لندن حيث مطار هيثرو، بدت ليزا غير متوازنة. انشغلت تارة بمراقبة الغيوم وهي تجري إلى حتفها، وتارة أخرى بتحريك مفاتيحها وكأنّها تبحث عن قفل يودي بها إلى باب ريح تسقط عن روحها وريقات القلق الصفراءالتي صبغت خدّيها الصغيرين.

بدت هيلين منشغلة بإرسال بعض الرسائل القصيرة، عبر هاتفها النقّال. انتبهت إليها ليزا وسألتها بصوت مكسور: ماذا تفعلين؟ ظلّت هيلين منشغلة بأزرار هاتفها وردّت باقتضاب: أرسل بعض رسائل الوداع.. لم أخبر أحدًا بسفري. تابعت ليزا انشغالها بالغيوم التي ازداد تطايرها كندف ثلج عملاقة من خلف المباني الشاهقة، وشيئًا فشيئًا أخذت تسلّ منها خيطًا طويلاً من الذكريات. استحضرت وجه صديقتها جيهان

الباكستانيّة بعينيها الواسعتين كفنجاني قهوة طافحين بسواد بنّي عميق، وأزاحت عنهما شعرها الأسود الطويل الذي لم تتمكّن منه الصبغات الشقراء. كان حلمها أن يكون لها شعر أشقر كشعر ليزا. كلّ محاولاتها باءت بالفشل، حتى إنّها قامت بتقشير بشرتها عدّة مرّات لتتخلّص من سمارها الذي كانت ليزا تشبّهه دومًا بلون الخبز الأسمر المخصّص لمرضى السكّر، إذ تقول وهي تقترب منها: السكّر مرتفع لديّ. . . أحتاج إلى سمارك. . .

أمّا جيهان فكان يسيل لعابها عندما تخلع ليزا ثيابها عن جسدها الأبيض. تظلّ تتأمّله لفترة محتارة من أين تبدأ. تدحرجها أمامها على الملاءة السماويّة المرقّطة بأزهار اللوتس البنفسجيّة، تصل بها إلى حافّة السرير العريض، ثم تتمرّن بها على السقوط الحرّ لتنكسر بين ذراعيها ويسيل زلالها صافيًا كبلّور سائل على رخام الغرفة الغارقة في السكون، سكون يتمرّغ في انكسار الضوء الهارب من حوافّ الستارة التي لم تفضح يومًا للعابرين على الرصيف المجاور ما يدور بين جدرانها.

دوّرت هيلين مقبض النافذة ربع دورة، فتسرّب تيّار هوائي منعش. نظرت نحو ليزا وابتسمت، أمسكت بأصابعها فوجدتها باردة كقطعة جليد مرميّة على مقعد السيّارة، ضغطت عليها

وفركتها بباطن كفّها، ثم أغلقت فتحة النافذة.

ـ عفوًا، هل يمكنني معرفة كم الساعة الآن؟

نظر السائق إلى شاشة صغيرة باهتة، ثم حدّثها عبر المرآة المعلّقة أمامه.

ـ الثانية بعد الظهر... عفوًا ما هو موعد رحلتك؟

ـ الثالثة تمامًا.

ردّت هيلين بعدما أدركت أنّ الزمن تحوّل إلى عتلة كبيرة أخذت تتسارع بجنون...

هنا تدخّلت ليزا بعدما قرصها تدارك الوقت.

ـ هل ما زال أمامنا الكثير حتى نصل المطار؟

بحث عنها السائق في المرآة المعلّقة قبل أن يجيبها:

ـ .. خمس دقائق ونصل مطار هيثرو.

تابع السائق كلماته، بعدما سحرته عينا ليزا الصغيرتان كحبّتي الكرز.

ـ هذه هي المرّة الأولى التي تسافران فيها من مطار هيثرو؟

انشغلت ليزا بترتيب شعرها بأظافرها الطويلة والمدبّبة كمخالب قطّ شرس، فردّت هيلين:

ـ نعم. . . هذه هي المرّة الأولى التي نأتي فيها إلى مطار هيثرو.

تابع السائق تساؤله بعدما أرخى حزام الأمان الذي ضايق استرساله في التحدّث:

ـ إلى أين تسافران؟

تردّدت هيلين قليلاً ثم قالت:

ـ إلى حلب. . .

فتّش السائق في ذاكرته وهو يردّد كلمة حلب، إلى أن اكتشفها بشيء من الرعب:

ـ عرفتها. . في سوريا. . . قريبة من العراق أليس كذلك؟

ـ نعم. . . إنّها قريبة من العراق.

ـ منطقة خطرة. . . هل أنتما صحفيّتان؟

ـ حلب بعيدة عن العراق. . . هي منطقة آمنة.

استنشق السائق رشقتين من بخّاخ الفنتولين الذي يأخذه مرضى الربو، وبين كحّتين قال:

ـ الشرق لا يؤتمن جانبه. . . إنّهم إرهابيّون. . . يذبحون بلا رحمة.

نظرت ليزا في عينيْ هيلين المشرقتين كسحابتين في وهج

الشمس، ثم همست لها وهي تشير للسائق مؤكّدة صحّة كلامه:

ـ ألم أقل لكِ... اسمعي بأذنيكِ!

تدخّل السائق بعدما أخذ شهيقًا عميقًا.

ـ أتمنّى لكما رحلة سعيدة... وعودة آمنة.

صحّحت ليزا من جلستها وأفلتت أصابعها من كفّ هيلين محاولة للمرّة الأخيرة أن تثنيها عن السفر، فتوجّهت بحديثها إلى السائق:

ـ حاولت أن أقنعها بما قلت.. بلا جدوى... إنّها مصرّة على السفر... ستسافر لوحدها...

أبدى السائق استغرابه وأظهر استحسانًا ازاء موقف ليزا التي سحرته بعينيها الكرزيّتين.

ـ آه.. ستسافر لوحدها...

التقطت ليزا دهشة السائق ونظرت نحو هيلين...

ـ نعم... ستسافر لوحدها...

هزّ السائق رأسه كمن اكتشف سرًّا عميقًا.

ـ إذًا كوني حذرة في جولاتك... ها هو مطار هيثرو.

بمجرّد سماعها لكلمة مطار، شعرت ليزا بالإحباط فاسترخت في مقعدها، بينما دارت السيّارة حول نفسها نصف

دورة، قبل أن تتوقّف أمام باب المطار الذي بدا في أوج ازدحامه.

ـ أتمنّى لك رحلة سعيدة... ولا تنسي: الحذر ضروري.

ردّت هيلين باقتضاب وهي تهمّ بفتح الباب.

ـ شكرًا لحرصك..

جرّت ليزا الحقيبة بينما انشغلت هيلين في البحث داخل حقيبة يدها عن جواز سفرها وتذكرة السفر. توجّهتا بخطى سريعة إلى كوّة الاستعلامات للاستفسار عن الرحلة، فأشارت الموظّفة بضرورة التوجّه فورًا إلى إحدى البوّابات المؤدّية إلى ساحة المطار. التفتت هيلين إلى ليزا، وضعت كفّيها على طرفي خدّيها الباردين:

ـ حان الوقت... سأودّعك... يبدو أنّني تأخّرت عن الطائرة.

اقتربت منها أكثر وضمّتها بكلتا ذراعيها غير مكترثة بحقيبة يدها التي سقطت من كتفها وتناثرت محتوياتها على غير هدى. ثم همست في أذنها الصغيرة وهي تشمّها:

ـ سأشتاق إليك كثيرًا... لن أطيل الغياب... لا تغتمّي...

حلب

في النفق الحلزوني المظلم، كانت هيلين تتهادى في سقوطها الحرّ كورقة صفراء، فيما كان صوت أمّها المتعبة من تناول أدوية السكّر والسرطان يتردّد قادمًا من قاع سحيق: لا تغوصي عميقًا يا هيلين... الحقيقة تكمن دائمًا في الأشياء الظاهرة... عبثًا كانت تحاول الردّ عليها، تناديها باسمها، لم تكن تتوقّف ولو للحظة عن تأرجحها وارتطامها بجانبي النفق ككرة مطّاطيّة لا تنفكّ عن الحركة. جمعت هيلين قواها من جديد، من دون فائدة. انعقدت الكلمات واستطالت كفقّاعات هوائيّة كبيرة ضغطت على صدرها. جاء الصوت من جديد بعيدًا وواهنًا أكثر ممّا كان: هيلين... العناد بداية الطريق نحو التهلكة... هيلين!! تشبّثت بأطراف الريح. من دون جدوى. بعدما فقدت الأمل بإمكان وقف انحدارها نحو المجهول،

فتحت فمها كعصفور صغير ينتظر منقار أمّه. لعب الخواء غبارًا في حلقها وجفّ اللعاب على مخارج الحروف. لا جدوى من فكّ الحبال الغليظة التي شدّتها إلى مراسي الصمت. مرّة أخيرة، لملمت قواها وأطلقت ثغاءها...

العجوز السبعينيّة التي كانت تجلس قرب هيلين، انتبهت إلى الكابوس الذي جعلها تتصبّب عرقًا على طرفي وجنتيها. جرّبت إيقاظها بهدوء. وحين فشلت، نادت على مضيفة الطائرة التي هرعت إليها:

ـ من ربع ساعة وهي على هذه الحالة... لا أدري ما بها. كانت ترتجف كمن أصابته نوبة حمّى... إنّها تحتاج طبيبًا، هذا أكيد.

نظرت المضيفة الشقراء إلى وجه العجوز التي خاتلها الخوف من وضع جارتها غير الطبيعي، ثم قالت:

ـ يبدو أنّها تركب الطائرة للمرّة الأولى... دعينا نوقظها بهدوء!

مدّت المضيفة يدها إلى كتف هيلين التي كانت ما تزال تكابد إرهاصات كابوسها المزعج، وهزّتها بهدوء. غمغمت هيلين بكلمات غير مفهومة، ثم فتحت عينيها على وجه المضيفة المشرق كنافذة بحريّة.

ـ أنا آسفة، اضطررت لإيقاظك... يبدو أنّ حلمًا مزعجًا قد عكّر صفوك...

تدخّلت العجوز التي انفرجت أساريرها بعدما تأكّد لها أنّ الموضوع لا يتعدّى كونه حلمًا مزعجًا:

ـ بالفعل كنت ترتجفين كطفلة أصابتها الحمّى... اعتراني القلق عليك، لذا استدعيت المضيفة...

عدّلت هيلين من جلستها وبحثت بشفتيها عن ابتسامة تقابل بها اهتمام العجوز والمضيفة:

ـ شكرًا لكما... أنا آسفة، يبدو أنّني أتعبتكما...

قاطعتها المضيفة وهي ترفع الستارة عن النافذة الدائريّة قرب مقعد هيلين...

ـ المهمّ أنّك بخير... انظري، منذ دقائق دخلنا الأجواء السوريّة... الشمس هنا لا تخجل... تفضح كلّ شيء.

تبسّمت هيلين بعدما ألقت نظرة عابرة من النافذة، أكملت المضيفة:

ـ نصف ساعة ونكون في مطار حلب... سأجلب لك كوبًا من الزهورات... إنّه كفيل بتعديل مزاجك... ما رأيك؟

أومأت هيلين بعينيها موافقة وغمرها دفء خفيف اكتنف

كلمات المضيفة ذات الصدر النابق من طرفي فتحة قميصها الأبيض. للحظات، تخيّلت نفسها وهي تقطع أزرار قميصها المشدود بإحكام على صدرها العريض، كما كانت تفعل ليزا بها، لكنّها سرعان ما طردت الفكرة إذ تذكّرت حلمها الذي ما انفكّ يطاردها منذ رحيل أمّها. تناسته هو أيضًا ونظرت عبر النافذة إلى الأراضي الزراعيّة الشبيهة من علٍ بمربّعات الشطرنج، وعليها تناثرت بعض الأشجار البيادق.

قطعت عليها العجوز استرسالها، وقالت بصوتها الرخيم المتعب:

ـ ما زلنا فوق الشريط الساحلي... هذه الأراضي الزراعيّة تبدو كلوحة تشكيليّة، أليس كذلك؟

هزّت هيلين رأسها دون اكتراث، فوضعت العجوز يدها على صدرها وعرّفت بنفسها بدون مقدّمات:

ـ اسمي كاترين، أعمل في تجارة اللوحات التشكيليّة... هذه زيارتي السابعة لحلب...

ما إن سمعت هيلين اسم والدتها، حتى وضعت يدها على جبينها وأغمضت عينيها على النفق الحلزوني المظلم. سألتها العجوز مضطربة.

ـ هل أصابك مكروه؟ يا إلٰهي يبدو أنّك متعبة... أين ذهبت المضيفة!!

رفعت هيلين يدها كمن يطلب الهدوء، وصلت المضيفة بصدرها الواسع وهي تحمل كوب الزهورات الذي شلّ برائحته الأخّاذة حركة العجوز فبقيت صامتة.

بلّلت هيلين شفتيها بدفء حلو المذاق، قبل أن تأخذ جرعة كبيرة. استساغت المذاق وشعرت وكأنّ خيطًا رفيعًا من بخار أصفر هو رحيق آلاف تويجات الأزاهير والورود، أخذ يطلع من فتحتي منخاريها. شعور ممتع بالنشوة أشبه بتيّار كهربائي سرى بخفّة في أنفاقها التي أخذت عتمتها تتبدّد شيئًا فشيئًا. كانت العجوز الناحلة ترقب بطرف عينها، محاولة الاطمئنان على حال جارتها...

ـ أنا آسفة... أحيانًا أبدو ثرثارة فوق اللزوم.. أعرف أنّها عادة سيّئة.

اجتاحت هيلين ابتسامة امتدّت من شفتيها إلى خدّيها، لدرجة أنّ أرنبتي أنفها الصغير تحرّكتا من صراحة تعبيرها، وهذا ما دفع العجوز لأن تستمرّ في الكلام:

ـ الرحلة من لندن إلى حلب طويلة.. ومملّة أليست كذلك؟ هل هذه زيارتك الأولى إلى حلب؟

انتظرت العجوز أن تنزل هيلين كوب الزهورات من بين شفتيها الرطبتين، فنظرت إليها هيلين بعدما شعرت بعدم الأسف على إضاعة الدقائق المتبقّية من الرحلة بالدخول في

ثرثرة لا جدوى منها مع عجوز يطفح الفضول من تساؤلاتها.

ـ نعم هذه زيارتي الأولى.

شعور بنشوة الانتصار ارتسم على ملامح العجوز التي أدركت أنّ طلقتها الأخيرة أجدت نفعًا، وبسرعة قذفتها بسؤالها الثاني حتى لا تترك لها فرصة الركون إلى صمتها من جديد...

ـ زيارة عمل،أم سياحة؟

ـ سياحة... هذه هي المرّة الأولى التي أزور فيها الشرق..

هزّت العجوز رأسها بعد أن أنهت هيلين جملتها كمن يطلب منها المضيّ في كلماتها، إلّا أنّ هيلين أنهت كلماتها بسؤال:

ـ قلتِ إنّ هذه هي زيارتك السابعة... هل هذا صحيح!

ـ نعم... ولكن عذرًا، كأنّك لوحدك... لماذا لم تأتِ مع مجموعة، أما كان هذا أفضل لك؟

ارتبكت هيلين من لكنتها التحذيريّة. ومن مكان ما، جاءها صوت ليزا محذّرًا إيّاها من الشرق ومن مخاطر تمسّكها بخيط بحثها الواهي عن والدها.

ـ أنا لوحدي... وأنتِ، ألست لوحدك؟

ضحكت العجوز ملء شدقيها، فتضاعفت التجاعيد في وجهها للحظات قبل أن توغل في حديث هادئ:

ـ أنت ذكيّة وجميلة... في الشرق، الذكاء لا ينفع كثيرًا والجمال يتحوّل في أحايين كثيرة إلى وبال على صاحبه خاصّة إذا كان أنثى.. للشرق قوانينه... ستدركين ما أقوله لاحقًا... يمكنك أن تعتبريني موسوعة صغيرة للشرق... خبرتهم خلال زياراتي الكثيرة. انظري إلى ثيابي كم هي فضفاضة مع أنّني جاوزت الثامنة والستّين، انظري إلى طول فستاني...

رفعت العجوز يديها كراقصة باليه هرمة وأرتها فستانها ذا الأكمام الطويلة، ثم مدّت ساقيها لتريها طول فستانها. اشمأزّت هيلين من خطوط الدوالي الخضراء المرسومة تحت جلدها الرقيق. أخذتها العجوز بعيدًا تحت وابل كلماتها.

ـ في هذه البلدان ثمّة هوس غير طبيعي باللون الأبيض... كلّ ما هو أبيض يجذبهم... خاصّةً إذا كان لحمًا، ستكتشفين ذلك، انتبهي لنفسك! جمالك لافت وجذّاب...

خجلت هيلين من إطراء العجوز، شكرتها بإيماءة من عينيها وتسلّل الدفء إليها من عينيها الغائرتين الخبيرتين. أحسّت للمرّة الأولى منذ أن رحلت أمّها، أنّها أمام امرأة

تشبهها بمفرداتها ونصحها وعينيها الغائرتين، حتى ابتسامتها الشاحبة التي كانت تلامس شفتيها كنسيم عابر، تشبه كثيرًا ابتسامة أمّها.

بعد الستّين، تتشابه كلّ النساء، قالت هيلين لنفسها، ساهية عن كلمات العجوز التي واصلت إسداء النصح إليها.

ـ تصوّري، ذات مرّة تعلّق بي شابّ في الثلاثين... فنّان تشكيلي... ظننت بادئ الأمر أنّها مزحة، إلّا أنّني سريعًا ما اكتشفت أنّه يريد الارتباط بي بعد أن عرف أنّني مطلّقة... هل تعرفين لماذا؟

هزّت هيلين رأسها بالنفي، فاهتزّت خصل شعرها الأملس على طرفي جبينها العريض الموسوم بالتساؤل.

ـ كان على استعداد للزواج منّي، على أمل أن ينتقل للعيش معي في لندن... في حين كان زوجي يقرف من النوم معي في سرير واحد!

تفاجأت هيلين بصراحة العجوز التي أخذها الانفعال بعدما لمحت شغفًا في عينيْ هيلين وهي تستمع لكلماتها، فغاصت في شرح تفاصيل صغيرة أخجلت هيلين لخصوصيّتها.

ـ كان يضع رأسه على كتفي ويشمّ عنقي كطفل رضيع يبحث عن ثدي أمّه... لا أخفيكِ أنّه أعاد لي شيئًا من أنوثتي

المنسيّة... طلب منّي أن يرسمني عارية... رفضت... خفت أن يكتشف جسدي الموشوم بسكّين الزمن... ربّما كنت متواطئة معه... أعجبتني اللعبة، فتماديت في إغوائه.

أغمضت العجوز عينيها للحظات، فتكشّفت العروق الصغيرة فوق جفنيها المتعبين من سياط الزمن. صمتت قليلاً كمن يسترجع شريطًا طويلاً من الذكريات. حوّلت هيلين انتباهها إلى كوب الزهورات بين كفّيها، أخذت رشفة منه قبل أن تلتفت إلى العجوز وتسألها بهدوء:

ـ كنت أريد أن أسألك عن فندق بارون...

انتظرت هيلين ريثما تخرج العجوز من فجوة الزمن التي وقعت فيها، فما كان من تلك الأخيرة إلّا أن عدّلت من جلستها، قطّبت حاجبيها فوق عينيها الغائرتين، ثم ردّت على سؤال هيلين بسؤال اكتنفه غموض:

ـ من دلّك على هذا الفندق؟

بحثت هيلين عن مخرج يموّه مقصدها، فبدت كطفلة صغيرة مرتبكة أمام معادلة رياضيّة معقّدة. حرّكت يديها لتمنح نفسها مزيدًا من الوقت، فنبّهتها العجوزإلى كوب الزهورات في يدها، ثم استأنفت كلامها بعدما خمّنت أنّ هيلين لا تعرف عن الفندق سوى اسمه.

ـ فندق قديم.. يرتاده الكثيرون من عشّاق الماضي

لاشتمام رائحة المشاهير الذين نزلوا فيه. الكثير من زعماء العالم أقاموا فيه... تصوّري أنّ أجاثا كريستي كتبت فيه روايتها الشهيرة «جريمة في قطار الشرق السريع»... هل قرأت أجاثا كريستي؟

سألتها العجوز وحدّقت في عينيها اللتين استعادتا بريقهما، فسارعت هيلين بالردّ:

ـ قرأت لها الكثير... ولكن، قولي لي كيف يمكنني الحصول على غرفة في فندق بارون؟

أتى صوت المضيفة عبر مكبّر الصوت وقطع حديثها. (على الركّاب ربط أحزمة الأمان، ثماني دقائق وتحطّ الطائرة في مطار حلب..).

بحثت العجوز عن حزام الأمان، بينما تأمّلتها هيلين بطرف عينها فأحسّت أنّ السنوات أضرمت في العجوز صفارًا أشبه بصفار البيض. ذكّرها بالقيح. أغمضت عينيها فاقتربت من حدود النفق الحلزوني الذي حاول التهامها بفمه الكبير. ارتجفت شفتها السفلى كجناح نحلة هالها رحيق غامض. حوّمت حول أطراف الفوّهة، فأخذ شهيق قويّ يشفطها. ارتفعت قليلاً كريشة في مهبّ الريح، وحملها التيّار القويّ إلى حيث لا تدري. استسلمت. كانت الطائرة قد أخذت بالدوران راسمة حول نفسها دائرة كبيرة...

بعد غيبوبة طويلة، فتحت هيلين عينيها كمن يفيق من صدمة قاسية، حرّكتهما في كلّ الاتّجاهات، النتيجة واحدة. الملاءة البيضاء والمخدّة والسرير والإبرة الصغيرة المغروزة في الوريد النابق من ظاهر كفّها والمتّصل بخرطوم رفيع طويل يتدلّى من كيس السيروم. إذًا أنا في المشفى. يا إلٰهي منذ متى أنا هنا، ومن الذي جاء بي؟ أدارت وجهها نحو النافذة المطلّة على ساحة عامّة. سارية طويلة وعلم كبير يرفرف في نهايتها. فرحت في زاوية ما من قرارة نفسها. هذا على الأغلب علم سورية... إذًا أنا في حلب... ولكن ما الذي جرى لي...

رفعت هيلين جسدها واستندت على مرفقيها. تأمّلت الساحة بعينين تشعّان فضولاً، فاكتشفت سريعًا أنّها في مشفى جامعي. الطلبة وهم يتأبّطون كتبهم يحثّون الخطى بكلّ

الاتّجاهات، يلجون الأبواب الحديديّة المفتوحة على الساحة الواسعة، ويجعلون المكان يبدو وكأنّه في بداية صحوه.

يبدو أنّني نائمة منذ وقت طويل. . . ردّدت هيلين في سرّها، بعد أن أحسّت أنّها إسفنجة خفيفة تبخّرت من مسامّها كلّ حبّات الرطوبة. تأمّلت كيس السيروم الذي التصق جانباه بعدما أفرغ ما في جوفه، راقبت تثاقل تواتر نقاط ما تبقّى من السائل الذي بدا ناصعًا كألماس نقي، وأدركت فورًا من بطئها أنّها هنا منذ ساعات طويلة. . . مؤكّد أنّي هنا منذ أكثر من عشر ساعات. . . ابتسمت قليلاً ساخرة من تخمينها، قبل أن تشيح بوجهها نحو النافذة المطلّة على الساحة. . . عشر ساعات. . . قولي عشرين ساعة ولا تخشي. . . ولكن لماذا أبدو خاوية بهذا الشكل؟!

حرّكت رأسها يمنة ويسرة، تأمّلت محتويات الغرفة، كانت حقيبة سفرها مركونة جانب خزانة معدنيّة رماديّة اللون. استندت برأسها إلى زاوية السرير وتنهّدت بعمق. . . يا إلٰهي كيف نسيت. . . آخر ما أذكره كنت في الطائرة. . . ثم ماذا حصل لي. . . فكّرت قليلاً. حاولت استرجاع ما حصل لها، ألحّت على ذاكرتها أن تفرد أوراقها، إلّا أنّها كانت في منطقة ما، بعيدة ونائية. حامت فوق تفاصيل ضبابيّة، كطائر يحلّق عاليًا، ثم أدركت سريعًا أن لا فائدة من الضغط على ذاكرة خاوية.

صوت طرقات خفيفة على الباب الذي انفتح بهدوء. دخل شابّ في الثلاثينيّات يرتدي صدرة بيضاء وبيده جهاز ضغط دم. ابتسم لها وهو يدخل الغرفة. تقدّم ووقف قرب السرير. صبّح عليها بلكنة إنكليزيّة فيها تثاقل... صباح الخير... هيلين... نظرت إليه هيلين مندهشة... كيف عرف اسمي... جرّ الشابّ الوسيم كرسيًّا حتى أعلى السرير وجلس قريبًا منها... من جواز السفر... على فكرة اسمك جميل... وأنت جميلة... تكسّرت نظرات هيلين أمام بريق عينيه الواسعتين وهو يتغزّل بها غير آبه بالكسوف الذي أصاب وجهها.

ـ البارحة، عندما قالوا لي لدينا مريضة إنكليزيّة... ظننتك عجوزًا من ذوات الباحثات عن سراديب الشرق العتيقة... تفاجأت عندما رأيتك... حقيقة تفاجئت...

مدّ الشابّ الوسيم يده إلى كيس السيروم وأغلق الصبّاب، ثم بحث في جيوب صدرته البيضاء عن شيء ما...

ـ لم تعودي بحاجة إليه.. أعرف أنّه أتعبك... هاتِ يدكِ...

مدّت هيلين يدها بينما كان هو يبلّل قطعة قطن بالكحول، أمسكها برفق وتأمّلها للحظات قبل أن يخرج الإبرة بهدوء. ترك يدها الصغيرة في يده بحجّة الضغط على قطعة القطن مكان

الإبرة. شعور غامض مشى في جسد هيلين أصابها بالخدر. الشابّ الوسيم ارتبك بدوره عندما امتدّ الخدر إلى ساعده، فكسر الريبة التي لمحها في عينيْ هيلين، وقال:

ـ أنا آسف.. نسيت أن أعرّفك بنفسي... أنا محمّد... طبيب عامّ... البارحة كنت قلقًا عليك كثيرًا لدرجة أنّني لم أبارح المشفى لأطمئنّ على استقرار حالتك... وها أنا ألمح في عينيك بريق العافية...

هزّت هيلين رأسها ممتنّة.

ـ أشكر اهتمامك بي... على فكرة لكنتك الإنكليزيّة ظريفة... متى يمكنني الخروج من المشفى؟

أزاح الطبيب مشجب السيروم مفسحًا لها المجال.

ـ يمكنك الآن أن تجرّبي المشي قليلاً.. المشي وليس رقص الباليه!

وأشار بحركة استعراضيّة من يده إلى الفسحة الصغيرة قرب السرير...

ـ الاستلقاء على السرير يشبه إيقاف محرّك السيّارة... أنت بحاجة لبضع دقائق كي تستعيدي توازنك... هيّا جرّبي...

نهضت هيلين ببرودة أعصابها الإنكليزيّة ومالت على

نفسها، أبعدت عن جسدها الشرشف الأبيض، ودلّت من حافّة السرير ساقيها الشبيهتين بعمودين من زجاج أبيض. خجل الطبيب الشابّ عندما انكشف أمامه أعلى فخذها، فأشاح بوجهه نحو الباب. لم تعر هيلين انتباهًا لحركتها، وقفت على قدميها وحاولت أن تتوازن على أرض بدت لها مائلة، فتحت ذراعيها قليلاً:

ـ أشعر وكأنّني أمشي على أرض غير مستوية. . .

تقدّم إليها الطبيب وطلب منها أن تضمّ ذراعيها، تردّدت هيلين مخافة السقوط، فمدّ يديه وضبّ ذراعيها برفق. . . هكذا أفضل! لا تخافي. . . امشي قليلاً. ابتعد عنها واستند بظهره إلى الجدار المقابل لها، وضع يديه في جيب صدرته البيضاء وراقبها وهي تمشي كمريضة أقعدها المرض سنين طويلة. عضّ على شفته السفلى كمن اكتشف سرًّا مهمًّا. . . هل هذه هي المرّة الأولى التي تغادرين فيها لندن؟. . . هزّت هيلين رأسها بالإيجاب وهي مسترسلة بخطواتها القصيرة المليئة بالحذر كطفل يكتشف للمرّة الأولى قدرته على المشي، بينما انشغل الطبيب الشابّ بمراقبة قدميها الحافيتين. سألها بعد تنفّس عميق:

ـ ثمّة من حذّرك من المجيء إلى هنا. . . أو لنقل لديك مخاوف من شيء معيّن. . هذا ما بدا لي.

وقفت هيلين وكأنّ السيور التي كانت تحرّك قدميها قد تقطّعت فجأة، فلم تجد بدًّا غير الجلوس على حافّة السرير القريب منها. راقب الطبيب ردّة فعلها وأدرك أنّ شيئًا من هذا القبيل قد حصل معها فعلاً.

ـ آسف، ربّما كان سؤالي في غير محلّه.. هذه خصوصيّات.. ولكنّني كطبيب أريد مساعدتك لتتخطّي الوعكة التي ألمّت بك...

اتّكأت هيلين على ذراعيها ورفعت وجهها إلى سقف الغرفة، تذكّرت وجه ليزا وهي تحذّرها، خفضت رأسها بهدوء ثم نظرت في عينيْ الطبيب الشابّ تبحث فيهما عمّا مكّنه من اكتشاف أنّ ثمّة من حذّرها من سفرها!

ـ فعلاً، هناك من حذّرني من السفر إلى هنا.. أنت طبيب ذكي.. كيف عرفت أنّ ثمّة من حاول إقناعي بعدم المجيء إلى هنا؟

ـ نحن في الشرق نفهم بالإيماء أكثر من الطبّ، الأدوية والعقاقير تحصيل حاصل وفي أحايين كثيرة لا تفيد..

قرّبت هيلين رأسها منه، أرادت التأكّد من شيء ما.. بهدوء قاطعته بعدما وجدت صعوبة في فهم لكنته الإنكليزيّة...

ـ ماذا قلت... لا تفيد؟

هزّ الشابّ رأسه وتناول علبة حبوب مسكّنة موضوعة على طرف الطاولة الصغيرة بجانب السرير، ثم رفعها عاليًا. . .

ـ نعم، هذه لا تفيد، على الأقلّ هنا في الشرق، هناك سراديب كثيرة ومغاور عميقة في النفس الإنسانيّة لا تطالها هذه الموادّ الكيماويّة ولا توغل بعيدًا، فنضطر نحن الأطبّاء لاستعمال المعول والمجرفة. . .

ـ هل تقصد المعول والمجرفة. . .

وقفت وأشارت بيديها إلى عمليّة الحفر والجرف، بينما هزّ الطبيب برأسه مؤكّدًا مقصده.

ـ نعم المعول والمجرفة، لا تستغربي. في الشرق، ثمّة قساوة في التربة البشريّة، لذا أحيانًا لا نجد غير المعول والمجرفة، كما تعرفين التربة بحاجة للتهوية قبل زراعتها. .

صمت الطبيب الشابّ، فوجدت هيلين نفسها تقترب مجدّدًا من حوافّ النفق المظلم، إلّا أنّها سرعان ما صارت في قلب نفق آخر من الكلمات التي تشابكت أمامها، نظرت في عينيْ الشابّ الذي بدا منشغلاً بمراقبة الممرّ الطويل المكشوف من زاوية الباب المنشقّ. جمعت قواها بعدما برقت صورة ليزا من جديد في مخيّلتها وهي تقول لها: انتبهي لنفسك!. . . محت الصورة على عجل، وبادرته بسؤال:

ـ هل يمكننا اللقاء بعد خروجي من المشفى، إذا سمح لك وقتك؟

ظلّ الطبيب الشابّ منشدًّا إلى فتحة الباب، أعجبته اللعبة لدرجة أنّه كلّم هيلين من دون أن يرفع عينيه. . . ربّما في الأمر صعوبة، قد يثير ذلك بعض المشاكل. . . صمت برهة قبل أن يدير وجهه نحو هيلين، وحين لاحظ انكسارها، سرعان ما حاول تدارك الموقف.

ـ وضعك الصحّي على ما يرام، لم تعودي بحاجة إليّ. على أيّة حال، ها هو رقمي يمكنك الاتّصال بي إذا احتجت. . .

مدّ إليها بطاقة صغيرة أخذتها هيلين. نهض الطبيب الشابّ وقبل أن يغادر الغرفة، تذكّر شيئًا.

ـ على فكرة، البارحة ليلاً جاء موفد من قنصليّتكم بحلب ليطمئنّ عليك، وأعتقد أنّه ترك لك رسالة في الاستعلامات يمكنك أخذها والاتّصال بهم إذا شئت.

لم تتحمّس هيلين للموضوع. نهضت ورتّبت هندامها.

ـ. . سأرسل لك ممرّضة لمساعدتك. . . حظًّا سعيدًا. . .

جلست هيلين على حافّة السرير. فكّرت بما قاله الطبيب الشابّ. لا تستطيع التركيز. التقطت حقيبتها الصغيرة وعلّقتها

على ظهرها. وقفت برهة واختبرت قواها تحت ثقلها، ثم عاودت الجلوس. دخلت ممرّضة شابّة حيّتها ثم أعطتها ورقة صغيرة مكتوب عليها بالإنكليزيّة: (إذا احتجتِ إلينا يمكنك الاتّصال بنا على الرقم... التوقيع القنصل البريطاني بحلب).
دسّت الورقة في جيبها. أشارت لها الممرّضة بمرافقتها إلى باب المشفى الخارجي.

كانت هيلين تترنّح تحت ثقل حقيبتها المعلّقة على ظهرها وهي تسير في الاتّجاه الذي دلّتها عليه الممرّضة لتستقلّ سيّارة أجرة باتّجاه فندق بارون. للمرّة الأولى بحياتها، شعرت أنّ لأشعّة الشمس رؤوسًا مدبّبة تنغرز في جسدها، فيصير الدم يغلي في العروق وتتحوّل العظام إلى آجر مشويّ لا تطيقه العضلات ولا الأعصاب.

وقفت في زاوية الشارع المطلّ على ساحة الجامعة، رفعت يدها نحو حاجبيها ورمت بنظرها بعيدًا. طلبة يسيرون مسرعين في اتّجاهات مختلفة يحملون كرّاساتهم الدراسيّة، وآخرون في الطرف المقابل لها يستظلّون بسور واطئ، وبضع سيّارات تقطع الدوار في اتّجاهات متعامدة.

مشت هيلين باتّجاه الدوّار وعينها على السيّارات الصفراء، كما أفهمتها الممرّضة، رفعت يدها لإحداها فتوقّفت قرب ناصية الرصيف. فتحت هيلين الباب بعد أن أنزلت عن ظهرها الحقيبة، رمتها على المقعد الخلفي وارتمت إلى جانبها. مدت إلى السائق قصاصة من الورق كانت قد كتبتها الممرّضة، ودقّقت النظر في وجهه تتأمّل جذور شعر لحيته النابتة من تجاعيده القاسية. مرّت صورة ليزا أمام عينيها تحذّرها من الشرق. لكنّ السائق محاها حين بدّد مخاوفها بعد أن رماها بابتسامة عبر المرآة وتمتم بصوت خفيض:

ـ فندق بارون... أوكيه...

انفرجت أسارير هيلين بعد أن تأكّدت من معرفة السائق لوجهتها وظنّت أنّه ربّما يتقن الإنكليزيّة، فراحت تكلّمه وتسأله عن طول المسافة، إلّا أنّ السائق رماها بابتسامة ثانية من المرآة ورفع يديه مبديًا أسفه. التزمت هيلين الصمت وراحت بعينيها الملتصقتين ببلّور السيّارة تراقب الشوارع الفارغة التي لاذ أهلها من حرّ ذاك الصباح القائظ.

شدّ السائق مكابح السيّارة قرب حافّة الجسر. بضع نسوة ملحّفات بجلابيب سوداء يقطعن الشارع. نظرت هيلين إليهنّ محاولة البحث عن ملامحهنّ خلف الملاءات السوداء. من دون جدوى. فكّرت للحظات بلباسهنّ الأسود. كيف يحتملن

هذا الحرّ؟ لا، وفوقها اللون الأسود يمتصّ الحرارة... إنّه أشبه بفرن شمسي... انطلقت السيّارة وعبرت تحت جسر القطار الذي كان يشقّ مدينة حلب نصفين، في الشارع الطويل الممتدّ من الجسر حتى مبنى البريد.

شيئًا فشيئًا، أخذت ملامح المدينة تتّضح أمامها، محلّات على طرفي الشارع وأقدام المارّة تطرق الأرصفة بحيويّة الصباح الذي لم يعر انتباهًا للوهن الذي دبّ في مفاصلها بعدما زاد الحرّ من إعيائها، محلّ لبيع السندويش توقّفت السيّارة بجانبه عند الإشارة الضوئيّة... راقبت هيلين الأفواه التي كانت تأكل بنهم شديد، لفت انتباهها منظر إحدى الموشّحات بالسواد وهي تتناول سندويشتها من تحت ملاءتها، غير عابئة بأعين الشباب التي راحت تبحث عن سبيل يكشف شيئًا من وجهها الذي بالكاد شفّ عبر مسامات الملاءة السوداء... لو أنّهنّ اخترن اللون الأبيض... أو أيّ لون آخر... اللون الأسود... لماذا الأسود تحديدًا؟ ربّما لأنّ الأسود يبتلع كلّ الألوان... لا أدري... المهمّ أن أصل الآن بسلام، وجه السائق يسبّب لي الإقياء... إنّه أشبه بالذين نراهم في نشرات الأخبار وهم يضعون على رؤوسهم الأقنعة السوداء. الأسود هنا سيّد الألوان... ملاءات وجلابيب سوداء... ولحى سوداء... يبدو أنّ ليزا محقّة... بالرّغم من عبثها ولامبالاتها، إلّا أنّها قادرة على التصوّر... أصلاً

هي تعيش على التصوّر. . . كنت أظنّ أنّ خيالها الجنسي فقط هو الواسع. . .

انتبهت لصوت السائق وهو ينعطف نحو اليسار ويقف قرب مبنى قديم مربّع الشكل يشير إليه بيده ويقول لها: هوتيل بارون. . . نظرت هيلين إلى حيث أشار وهي لا تصدّق ما تراه، تقرأ اسم الفندق بالإنكليزيّة على لافتة صغيرة في ناصية الشارع، وتكاد تحلّق من الفرح. ها هي أخيرًا تصل لهدفها. فتحت أحد جيوب الحقيبة وأخذت ورقة من فئة المئة دولار مدّتها نحو السائق الذي التفت إليها وهو يتأمّل الورقة النقديّة بين أصابعها، وقال:

ـ خمسون ليرة. . . دولار واحد. . .

رفع السائق إصبعه راسمًا الرقم واحد، ففهمت هيلين وفتّشت في حقيبتها علّها تجد قطعة نقديّة صغيرة. لكنّها عادت لتمدّ إليه الورقة النقديّة ذات المئة دولار، فهزّ السائق رأسه رافضًا أخذها. مسح بطرف قميصه خيطًا رفيعًا من العرق أخذ يتسلّل بين أدغال لحيته الكثّة، وحاول إفهامها بالإشارات أن تكفّ عن البحث في حقيبتها. لم تصدّق هيلين تخلّيه عن الأجرة. نزلت مذهولة ولوّحت له شاكرة بعد أن علّقت حقيبتها على ظهرها. بادلها التحيّة ثم انطلق ليضيع في زحام شارع بارون.

وقفت هيلين تتأمّل الفندق، تفحّصته بعينيها غير آبهة بالحرارة التي أخذت تحرق فروة رأسها. رفعت عينيها عاليًا إلى أقصى زاوية الفندق، ومثل مصوّر بارع صوّبت عدستيها وأخذت تتفحّص النقوش البارزة على أطر النوافذ الواسعة في الطابق الأوّل، ثم دارت على الشرفات المطلة من الطابق الثاني، أمعنت النظر فيها وتخيّلت وجه أمّها مطلًّا من إحداها، لوّحت لها بمنديل ناصع البياض تحت أشعّة الشمس اللاهبة، أغمضت عينيها نصف إغماضة ودقّقت في تفاصيل وجهها المدوّر كقرص جبن أبيض. بدت كاترين شابّة في مقتبل العمر، اشتمّت هيلين رائحتها من بعيد... إنّها مغرمة بعطر الياسمين... هذه رائحتها...

توجّهت هيلين نحو البوّابة المؤدّية إلى الفندق. علّقت حقيبتها على ظهرها وصعدت الدرج العريض وهي تتمسّك بالدرابزون الحجري على الطرف الأيمن، رامية بثقلها على ساعدها الممسك بالحوافّ الحجريّة العريضة. وصلت المصطبة المرصوفة برخام أبيض، دفعت الباب الخشبي الكبير البنّي اللون ودخلت.

فندق بارون

لم يكن يومًا عاديًّا بالنسبة لهيلين. فعندما رنّ الهاتف القديم بجانب سريرها، ظنّت للوهلة الأولى أنّ زلزالاً قويًّا يهزّ الهواء الساكن داخل غرفتها. رفعت رأسها من على المخدّة للحظات، متسائلة من يطلبها هذا الصباح. بتثاقل وضعت السمّاعة على أذنها بعدما أسندت ظهرها على بروفيل السرير. جاءها صوت كارو العجوز متحشرجًا ممزوجًا بالسعال، وقد ميّزته على الفور من لكنته الأرمنيّة. خاطبها بدون مقدّمات:

ـ هيلين... بحثت في مستندات أرشيف الفندق... عندي لك أخبار مفرحة.

قفزت هيلين من السرير بلمح البصر منتصبة كمسمار أملس، سألته عن مغزى كلامه، فعاجلها بحكمة رجل ثمانيني:

ـ لا تستعجلي. . . تناولي فطورك، بعدها نجلس ونتحدّث. . . أنا بانتظارك.

أعادت سمّاعة الهاتف إلى مكانها ودارت على نفسها كطفلة فرحة. رسمت على صدرها إشارة الصليب وراحت تلبس ثيابها على عجل. خرجت من الغرفة وهي تزرّر قميصها، نزلت الدرج مسرعة وكادت أن تصطدم بالمستخدمة العجوز أرليت، اعتذرت منها دون أن تتوقّف، ثم ولجت الصالون حيث وقفت أمام كارو. نظر إليها بعينيه الجاحظتين تحت نظّارته السميكة، متفاجئًا بالسرعة التي نزلت بها. رفع رأسه عن قصاصة ورقيّة كانت بيده، مبديًا دهشته برؤيتها، فهمست له بلهفة:

ـ صباح الخير. . . طمئني ماذا وجدت؟!

خلع كارو العجوز نظّارته وفرك عينيه. ابتسم، فبانت أسنانه الصفراء بعدما تدلّت شفته السفلى. رفع في وجهها ورقة صغيرة كتب عليها بالأرمنيّة، فسارعت هيلين لأخذها، إلّا أنّه عاد وسحبها بسرعة، فظلّت يدها معلّقة في الهواء للحظات، قبل أن ترتاح على الطاولة العالية أمامه:

ـ لا تستعجلي الأمور. . . نحن الأرمن قُتل منّا الآلاف وما استعجلنا بل تركنا الأمور تستوي على نار هادئة. . . وأنتِ كلّما أسرعتِ في البحث عن ضالّتك، ستبتعدين عنها

أميالاً . . . كوني متروّية . .

استرخت هيلين وهي تصغي له. عرفت أنّ كارو العجوز، كحوذي مخضرم، يعرف كلّ الطرق التي تودي إلى الأسرار الدفينة بين ردهات الفندق. إلّا أنّه لا يقود حصان عربته نحو المجهول بسهولة، بل يقف عند مفترق الطرق، يراقب بعين الصمت الغادين والمغادرين، يدرس الأبعاد والمسافات ولا يسلك إلّا أقصر الطرق.

استسلمت بعدما فوّضت أمرها إليه. وكان هو الآخر مستمتعًا بالبحث عن ضالّتها بعدما وجد في قصّتها خيطًا مسلّيًا يضفي على سهره الدائم معنى. عاد كارو ورفع قصاصته الورقيّة من طرفيها في وجه هيلين. قال لها بلكنة المتيقّن من عين الحقيقة:

ـ انظري، من يكون هذا؟

فتحت هيلين عينيها وقرّبت قصاصة الورق من وجهها أكثر. لم تجد غير سطر واحد مكتوب بلغة غريبة. حاولت فكّ شيفرة الأحرف، إنّما بلا جدوى. لم تقرأ سوى التاريخ في أسفل القصاصة. أبعدت يديه عن وجهها ثم همست:

ـ لم أفهم شيئًا . . . ما هذه الأحرف؟

أشار كارو العجوز إلى السطر المكتوب ولم يقل بشأنه

شيئًا. ذهب في اتّجاه آخر وراح يحكي لها عن اللغة الأرمنيّة. أخذ القلم المثبّت إلى الطاولة وكتب أحرفًا غريبة على قفا الورقة الصغيرة، ثم قرأها وسط ذهول هيلين التي راحت تراقب شفته المتدلّية. عندما انتهى، ظنّته سيقول شيئًا مهمًّا، إلّا أنّه تناسى اللهفة التي أخذت تذوي في عينيْ هيلين كمكعّب من الثلج، ورسم أحرفًا كثيرة تأنّى في لفظها، ثم أعاد قراءة السطر المكتوب مرّات عدّة. بدت هيلين تلميذة كسولة ـ لا ترفع رأسها من بين كفّيها، حتى عندما امتدّ الخدر من ساعديها المستندين إلى الطاولة إلى رقبتها. ظلّت واجمة أمام سيل المعلومات المتدفّق أمامها، منتظرة أن يعود العجوز إلى صلب موضوعها مجدّدًا. لكنّه التقط ورقة أخرى وكتب اسمها بأحرف أرمنيّة. أشارت هيلين إلى السطر المكتوب والمذيّل بالتاريخ وقالت:

ـ... حتى الآن لم تقل لي ما المكتوب هنا...؟!

أدار كارو العجوز الورقة باتّجاهها. وضع سبّابته على الكلمة الأولى وظلّ ينظر إليها. رفعت هيلين وجهها نحوه بانتظار ما سيقوله:

ـ اقرئي.... ما هذا الحرف؟

ـ أرجوك عمّ كارو... لم أعد قادرة على التركيز... ما الموضوع؟!

شعر العجوز أنّ هيلين لم تعد تحتمل أن يأخذها في جولة مدرسيّة جديدة، فخلع نظّارته وفرك عينيه الجاحظتين مرّة ثانية، أخذ رشفة من فنجان القهوة الباردة التي كانت لا تفارق طاولته، وبدا أخيرًا كمن يستعدّ للخوض في أمر هامّ.

ـ إسماعيل آغا . . . أتعرفين من يكون؟

زمّت هيلين شفتيها مقطّبة الجبين، ثم هزّت رأسها راسمة حوله دوائر صغيرة من النفي:

ـ يجب أن تعرفي من هو إسماعيل آغا . . .

ضمّت هيلين يديها تطلب الرحمة، إلى أن أزال كارو غبش سؤاله الذي غطّى وجهها وأردف:

ـ كان إقطاعيًّا كبيرًا، وهو معروف من قبل أبناء منطقة عفرين التي تبعد عن حلب مسافة ساعة بالسيّارة. . . انظري هنا . . .

قال ذلك وأمسك كرّاسًا قديمًا تآكلت حوافّه واصفرّت أوراقه، وضعه أمامها على مهل، ثم أخذ يقلّب صفحاته. لم تعرف هيلين عمّا يبحث، إلّا أنّ رأسها كان ينوس مع كلّ صفحة جديدة يقلبها، إلى أن وصل إلى ضالّته. أشار بإصبعه إلى ورقة بدت كفاتورة حساب فيها أرقام وبعض الكتابات.

ـ أرجوك! ما هذا الدفتر ومن هو إسماعيل آغا؟!

أشار كارو إلى الطاولة الصغيرة، وطلب منها الجلوس:

ـ أنتم أبناء هذا الجيل... مستعجلون في كلّ شيء... تأكلون بسرعة.. وتمشون بسرعة.. وتفكّرون بسرعة.. تبحثين عن أبيك الضائع منذ خمس وثلاثين سنة... وكأنّك أضعته البارحة.. تعالي اجلسي..

جلست هيلين بقربه. أشار بإصبعه إلى تاريخ الفاتورة وإلى اسم صاحبها، ثم مرّ سريعًا على الطلبات المدّونة: كباب عنتابلي، لحوم مشويّة، سلطات مشكّلة، عصير البطّيخ الأصفر، قهوة تركيّة، مياه معدنيّة لبنانية، فودكا روسيّة...

انتابته نوبة سعال، فتابع بصوت مخنوق:

ـ أمّا هذه الخمسمائة ليرة فلم أجد لها معنى.. قد تكون عربون ليلة حمراء قضاها إسماعيل آغا خارج الفندق...

تنهّدت هيلين وشبكت يديها خلف رأسها بعد أن طوت أمامه الكرّاس الأسود. نظر إليها ثم إلى الكرّاس المغلق كباب موصد. صفنت قليلاً ثم أسبلت يديها واقتربت منه أكثر. تلفّتت حولها محاولة كبح جماح صوت عال حاول أن يتخطّى حنجرتها:

ـ لا يهمّني كلّ هذا... ما علاقة ما أبحث عنه بإسماعيل آغا؟

أشاح كارو بوجهه، رفع حاجبيه ثم تمتم بكلمات أرمنيّة، قبل أن يعاود سحب الكرّاس نحوه ليفتحه مجدّدًا على الصفحة نفسها.

ـ إسماعيل آغا هذا كان صديقًا مقرّبًا من بكري، صاحب خان الزيت القريب من هنا، ساحة تسمّى باب الفرج..

قلّب بضع صفحات أخرى كمن يفتّش عن شيء ما. لم تبدِ هيلين اكتراثًا، فتابع يقول:

ـ بكري صاحب خان الزيتون هو من تبحثين عنه!

انتظرت هيلين أن يكمل جملته لتقول شيئًا، لكنّه لجم كلماته عند حافّة الاكتشاف غير مبال بكلّ ما ارتسم على وجه هيلين الأبيض من أسئلة. بعدما وجدت أنّ العجوز هو وحده القادر، كربّان مخضرم، على توجيه سفنها التائهة نحو برّ الأمان، وما عليها إلّا المضيّ تحت رحمة مزاجه المتقلّب كشمس الربيع. رمت حصوة صغيرة على صفحة صمته الراكد، علّه يفكّ شباكها العالقة بماضي حلب المليء بالأسرار والخبايا، ربّتت على كتفه برفق وقالت:

ـ ماذا تقصد بأنّه الشخص الذي أبحث عنه؟.. هل هو...

تركت جملتها مبتورة الذيل، فتمتم كارو جملتين بالأرمنيّة قبل أن يتذكّر أنّ هيلين إنكليزيّة تفهم بالكاد بضع كلمات

عربيّة. التفت نحو الرواق المؤدّي إلى الغرف الداخليّة حيث كانت أرليت مشغولة بأمر ما، وقبل أن ينادي عليها وجّه كلماته إلى هيلين:

ـ الموضوع بحاجة إلى فنجان قهوة... أنتِ ما زلتِ نائمة... أرليت... أرليت لو سمحت... فنجانا قهوة..

أطلّت أرليت التي جاوزت العقد الرابع برأسها من أحد أبواب الرواق المعتم مؤكّدة وصول رسالته، ثم غابت مجدّدًا. انتهزت هيلين فرصة خروجه عن صمته، سحبت الكرّاس الأسود إليها تعيد تقليب الصفحات يمينًا ويسارًا بحثًا عن صفحة ما. سألت العجوز الذي كان يراقبها بعينيه الجاحظتين:

ـ كلّ الصفحات تشبه بعضها... أين صارت صفحة إسماعيل آغا؟

أشار كارو بيده جهة اليمين وقال:

ـ ها هي.

تفحّصت هيلين الصفحة وكأنّها عارفة ببواطن الأمور، فعاجلها العجوز يضيف:

ـ لا تفيد هذه الصفحة إلّا بشيء واحد... انظري هنا، أعلى الصفحة..

بدت هيلين كوتر مشدود إلى إصبعه، كصيّاد لمح في

أدغال كارو شيئًا ثمينًا. جاءت أرليت ووضعت على الطاولة أمامهما فنجاني قهوة. راح كارو يرتشف قهوته بنهم، وما إن انتهى حتى رمى بكلّ تكهّناته دفعة واحدة:

ـ إسماعيل أفندي وبكري أفندي كانا صديقين حميمين. الأوّل كان يملك كرومًا واسعة من أشجار الزيتون، وعلى ما أذكر كان سكّان بضع قرى يعملون لحسابه، أمّا بكري...

أغمض كارو عينيه للحظات متذكّرًا. لم تستطع هيلين أن تخبّئ دهشتها من معرفته بإسماعيل آغا، قاطعته مستفسرة:

ـ هل كنت تعرف إسماعيل آغا؟

لم يبالِ كارو بجملتها تلك، بل قفز من فوقها بمهارة ليوغل مزيدًا في ثنايا ذاكرته.

ـ كان بكري أفندي يملك خانًا للزيت في منطقة قريبة من هنا. يشتري الزيت من إسماعيل ويكدّسه في الخان. زرته مرّة أو مرّتين. لم يكن خانًا، كان أشبه بملعب واسع لسباق الخيول. تلال من صفائح الزيت ترتفع حتى تكاد تلامس السقف العالي للخان. كانت له علاقات واسعة مع تجّار من الشام والموصل وبغداد وبيروت. الغرفة التي تقيمين فيها الآن، كانت محجوزة دائمًا لحسابه. كان زوّاره كثرًا، من كلّ حدب وصوب.

وضعت هيلين من يدها فنجان القهوة بعدما أخذت تترنّح تحت سيل الأسئلة التي أثارها العجوز، وقبل أن يقفز من أخدود إلى آخر، سألته:

ـ ولكن أمّي نزلت في الغرفة نفسها، وأنت تقول إنّها كانت محجوزة دومًا.

رفع كارو يده آمرًا إيّاها أن تتوقّف عن مقاطعته مخافة أن يحيد عن النفق الذي يودي إلى الكنز الذي تبحث عنه، ثم أكمل:

ـ العلاقة بين إسماعيل وبكري كانت أبعد من عمليّة بيع وشراء... فما إن يصل إسماعيل إلى حلب، حتى ينسى بكري الخان ويترك لابنه الكبير حرِّيّة التصرّف وتبدأ سهراتهما... هنا، في هذا البهو، كانا يصلان الليل بالنهار... يشربان الفودكا ويتسامران مع النزلاء الألمان والفرنسيين والإنكليز... وأحيانًا كثيرة، كانا يدفعان حساب كلّ الطاولات... أيّام كان القرش له قيمة...

قال ذلك وفرك إبهامه على سبّابته، ثم ارتشف ما تبقّى من قهوته دفعة واحدة. أبعد الفنجان وأردف...

ـ ذات مرّة بعدما دفع الاثنان حساب الطاولات، اعترض رجل ثري لا أذكر بريطانيًّا كان أم أميركيًّا... شعر بالإهانة أن يدفع أحدهم عنه... فما كان من بكري إلّا أن طلب منّا أن

نطرده من الفندق لقاء مبلغ كبير. حاولنا أن نحلّ الموضوع بشكل ودّي، إلّا أنّ إسماعيل ضاعف المبلغ. فما كان من الرجل إلّا أن أمسك بيد زوجته الجميلة التي سال لعابها أمام وسامة إسماعيل آغا، وخرج من الفندق، استقلّ عربة تحت وابل من المطر، واختفى...

احمرّ وجه هيلين. جالت بعينيها في أرجاء البهو الهادئ، أعادت ترتيب الطاولات ورسمت بمخيّلتها ظلالاً واهية لملامح النزلاء آنذاك. أتاها الصخب وقهقهات امرأة مخمورة تجلس وحيدة مع رجلين وسيمين، تتّضح ملامحها عندما يشعل أحدهم بعود ثقاب سيجارتها، فتتأكّد من أنّها أمّها أيّام كانت شابّة.

قطع كارو العجوز بسعاله الجافّ تداعياتها تلك حين سألها بعدما أشعل سيجارته:

ـ أين سرحت بأغنامك؟

لم تفهم هيلين كنه جملته، إلّا أنّها عادت إليه بعدما نفضت عن رأسها غبار الماضي. بادلته الابتسامة ثم نظرت إلى سيجارته وقالت:

ـ تسعل وتدخّن... أمرك عجيب..!

ـ الأطبّاء ينصحون بترك التدخين.. أمّا في حالتي، فالكلّ نصحني بمخاطر الإقلاع عنه. تصوّري قالوا لي أحتاج لشيء

أشغل به نفسي عن نفسي. . .

عبّأ رئتيه من دخان لفافته، رفع سيجارته وفتلها بين أصابعه، ثم التفت إلى هيلين الحائرة في أمره، بعدما سمعت بنصيحة الأطبّاء له حاولت أن تعيده إلى قفص الماضي، فأشارت إلى الكرّاس الأسود على الطاولة:

ـ وبعدئذ، ماذا حدث للرجل الثري وزوجته؟

ـ هذه فاتورة تلك الليلة التي أتذكّرها جيّدًا كأنّها البارحة. . انظري هذه أرقام الطاولات وأسماء زبائنها. . . انظري إلى هذه. . هل رأيتها؟

أشار بإصبعه إلى كلمة أرمنيّة في منتصف الصفحة. فتحت هيلين عينيها بعدما رفعت عن وجهها خصل شعر تدلّت، وهمست:

ـ نعم رأيتها. .

أمسك العجوز بيده الواسعة يد هيلين الصغيرة ووضع أصبعها على الكلمة، ثم نظر في عينيها وقال:

ـ هذه كاترين وهذه طلباتها تلك الليلة. . . أذكر أنّها شربت حتى الثمالة. . . انظري إلى هنا. . .

رفعت هيلين جسدها وهي تمدّ رأسها نحو الكرّاس الأسود، بينما بقي كارو ممسكًا بسبّابتها مشيرًا بها نحو كلمة

أخرى. عبثًا حاولت أن تفكّ الأحرف المكتوبة بخطّ أسود غليظ، فهزّت رأسها متأسّفة. أسعفها العجوز قائلاً:

ـ ويسكي بلاك ليبل... لم تكن المرحومة تشرب غير الويسكي... أليس كذلك؟

لم ينتظر العجوز تأكيدًا من هيلين ومضى في سرد أحداث تلك الليلة. دخل تفاصيلها مستندًا تارة إلى الكرّاس الأسود، وتارة أخرى إلى ذاكرته التي بدت لهيلين كدفتر أثخن من الذي أمامها. إلّا أنّ صدمتها الكبيرة كانت عندما وصف بها الطريقة التي تتناول فيها أمّها الطعام. رفع يده اليسرى وقال بما لا يدع للشكّ مكانًا في تخمينه:

ـ المرحومة كانت تستعمل يدها اليسرى بمهارة... كانت لا تجلس إلّا في تلك الزاوية قرب النافذة المطلّة على زاوية الشارع، تفتح إحدى درفتيها وتبدأ بالتدخين... كانت تدخّن بشراهة...

أُصيبت هيلين بالهلع واختلّ توازنها وهي تسمع العجوز يفرد ذاكرته كشريط سينمائي، كان بارعًا ليس في الوصف فحسب، بل في التقاط أدقّ التفاصيل، لدرجة أنّه صوّر لها كيف كانت تعضّ بأسنانها على مشرب السيجارة بين شفتيها الرفيعتين وتتحدّث من دون أن تبعده عن فمها. ولم يكتفِ بهذا فقط عندما استأذنها قائلاً:

ـ ثمّة أشياء أخرى في حياتها الخاصّة... ربّما أتذكّر بعضًا منها... إن شئت طبعًا...

أومأت له هيلين بأن يستمرّ في إسقاط ذكرياته على شاشة إصغائها، فتمادى العجوز مطلقًا العنان لآلته القديمة في استرجاع الماضي، فاختلطت كلماته بأنين المسنّنات الصدئة والمحاور المتآكلة بفعل الزمن.

ـ أتذكّرها وهي تدخل البهو بفستانها الأحمر القصير... كانت لا تأتي إلّا عند منتصف الليل... تدخل فتلوي رقاب الزبائن نحو مفاتنها.. تتبختر كديك رومي نحو طاولتها المحجوزة سلفًا، وما إن تجلس حتى تتحوّل كلّ النساء إلى أعقاب سجائر.. ويبدأ الغمز واللمز... كنّا نتحوّل، نحن العاملين في الفندق، إلى مراسلين بينها وبين من يطلب ودّها. كانت تبتسم قائلة: أبلغه شكري، أو كانت ترفع حاجبيها الرفيعين كخيط من الفضّة، دافعة الحديث في اتّجاه آخر.. أريد أن أرقص الفالس، بدّلوا الموسيقى، تقول... وما إن تقوم، حتى يأخذ الحضور بالتصفيق وتزاح الطاولات مفسحة لها حيّزًا واسعًا للرقص، لتدور حول نفسها كفراشة حول وهج النار. يرتفع فستانها القصير، تدور الكؤوس ويرتفع الصخب.. كانت ترقص بجنون... وأنتِ هل تجيدين الرقص مثلها؟

ـ احجز لي تلك الطاولة في الزاوية. وسترى كيف تتدحرج قلوب الرجال على هذا البلاط.

بقي العجوز صامتًا. بلّل شفته المتدلّية بلسانه، فرك بأصابعه ثنايا تجاعيد جبهته العريضة، فيما وضعت هيلين ساقًا على ساق واسترخت موقنة أن لا أحد يستطع أن يعيد بناء الماضي الذي تزحزحت حجارته وتكوّمت، إلّا هذا العجوز الذي لم تستطع حتى المجازر أن تمحو ذاكرته، فظلّ يحتفظ بها كألماسة نادرة بين ثنايا منديل مجعّد لا يأبه به أحد.

عدّل كارو من جلسته وانحنى مستندًا بجذعه على مرفقيه، فبدا كمن يضمر شيئًا. أخرج لفافة تبغ من العلبة وراح يلعب بها بين أصابعه. تأهّبت هيلين بدورها عندما غطّى العجوز عينيه القاطبتين بسحابة داكنة قد تمطر في أيّ لحظة، وفعلاً لم يمضِ وقت طويل حتى حرّك لسانه كقاطرة بخاريّة هرمة:

ـ هناك صنف من النساء يتركن في قلوب الرجال ندبة لا تندمل أبدًا... تظلّ تتّسع في كلّ الاتّجاهات. المرحومة كانت من هذا الصنف... أنثى تدرك قدر أنوثتها وتحتفي بألقها...

توقّف عن الحديث فجأة وكأنّ الأحصنة التي تجرّه نحو سبر المجهول غاصت عميقًا في وحل لزج. أمّا هيلين التي وصلت إلى عتبة الاكتشاف، فقد رفعت رأسها الذي بدا ثقيلاً

ككرة زجاجيّة وآثرت البقاء صامتة بانتظار أن يفكّ العجوز الأحجية التي فضّلت أمّها أن تأخذ سرّها معها. حتى وهي في أيّامها الأخيرة، حاولت هيلين أن تستدرجها إلى مطبخ ذكرياتها، لكنّها كانت مصرّة على النسيان وكأنّ التي رفعت ساقيها تلك الليلة، كانت واحدة أخرى. أكثر من مرّة تمالكت هيلين أعصابها وهي تسمعها تردّد الكلمة نفسها: لا أعرف، وكانت متأكّدة أنّ في الأمر لغزًا ما. حتى عندما أخذها هذيان الموت، كانت تصحو كلّما حاولت هيلين أن تنتزع منها مفتاحًا لذاك القفل.

ـ إسماعيل أفندي وبكري أفندي... ابحثي عنهما...

رمى العجوز بآخر أوراقه قبل أن ينهض على رنين الهاتف الأسود الكبير، تاركًا هيلين تنوس مع بندول الساعة الجدارية قبالتها. يتردّد صدى الاسمين في صدغيها ثم يسقطان كحجرين أملسين في قرارة نفسها السحيقة.

إسماعيل أفندي وبكري أفندي. لماذا الاثنين معًا وليس أحدهما. تساءلت والتفتت نحو العجوز المشغول بإنهاء مكالمته الهاتفيّة.

ـ لدينا وفد كبير من أرمينيا سيصل غدًا صباحًا. ربّما أنشغل كثيرًا... اسْمَعِي! في تلك الليلة، شربت المرحومة حتى الفجر ورقصت إلى أن هدّها التعب... بعدئذ، لا أدري

ما حصل. ذهبت مع إسماعيل أفندي وبكري أفندي...

وقف كارو مناديًا على أرليت التي بدت مشغولة بأمر ما، وقام وتوجّه نحو الرواق الطويل وهو يناديها مجدّدًا. لحقته هيلين وعندما وصلت إلى جانبه أمسكت بيده وقالت بعصبيّة:

ـ كارو... أرجوك... أزح عن صدري هذا الغمّ وقل لي ماذا حدث تلك الليلة؟...

نظر إليها كارو متفاجئًا، وما إن لفحه الاستجداء الطافح من ملامحها، حتى أشار لها بأن تعود إلى مكانها وسيوافيها بعد لحظات.

مشت هيلين نحو كرسيّها مترنّحة، وما هي إلّا دقائق، حتى عاد إليها. فجلس وأغلق الكرّاس الأسود الكبير على مهل وقال:

ـ ما أخبرتك به هو لبّ الحكاية... ليس لديّ ما أضيف...

سحبت هيلين الكرّاس من أمامه، طرقت عليه بإصبعها كمن يدقّ بابًا موصدًا، وردّت بعصبيّة بادية:

ـ لا، هذا ليس كلّ شيء... ثمّة أشياء أخرى في الكرّاس لم تقلها لي...

ابتسم العجوز وقال:

ـ هذا دفتر حسابات وليس دفتر ذكريات. . . لدينا مثله العشرات، ندوّن فيها طلبات الزبائن وتواريخ إقامتهم. . . أمّا خصوصيّاتهم فلكلّ دفتره الخاصّ يدوّن فيه ما يشاء!

ـ أنت تحتفظ بالكثير من ذكريات الآخرين. . .

قالت هيلين ذلك وتقطّعت جملتها كخيط رفيع بين يديها المتشنّجتين، المرفوعتين أمام وجه العجوز. حاولت تمالك أعصابها، فخفضت يديها على ركبتيها، ثم أحنت رأسها كمن يبدي اعتذارًا. تصنّعت سعالاً خفيفًا، ثم تحدّثت إلى نفسها بصوت عال.

ـ مضى على وجودي هنا عدّة أشهر. . يومًا بعد آخر أكتشف أنّني أبحث عن إبرة داخل كومة قشّ. لم أنجز شيئًا. . تعلّمت العربيّة وبعض المفردات الأرمنيّة. . . وما زال بحثي جاريًا عن أبي. . . شيء مضحك، بالعادة يضيع الأولاد ويبحث عنهم الآباء. . . أمّا أنا، فقصّتي تشبه قصّة تدخينك. . ما رأيك، هل أستمرّ بالبحث، أم أعود إلى لندن؟

حرّك العجوز شفته المتدلّية فبانت من جديد أسنانه الصفراء. أطلق ضحكة خفيفة، ثم قال غير مبال:

ـ عودي من حيث أتيتِ. . .

فغرت هيلين فمها، ثم تبسّمت حين فطنت إلى مزاح

العجوز. انتهزت الفرصة وعاجلته بشيء من الدلع:

ـ سأعود، ولكن ليس قبل أن تدلّني على أبي...

انحنى العجوز مستندًا بذراعيه إلى طرفي كرسيّه، أشار لها أن تقترب، وما إن صارت جاهزة لسماعه، قال:

ـ هنا، عندما يضيع أحد الأولاد يأخذونه إلى المسجد ويبقى في عهدة الإمام إلى أن يجده أهله... ما رأيك؟ أأصحبك إلى المسجد لينادوا عليك، ربّما يأتي والدك ويأخذك؟ المصيبة إذا لم يأتِ أحد لأخذك، سيضطر الإمام لأن يفعل وقد... يتزوّجك...

ـ دعنا نعود إلى تلك الليلة... قلت إنّ المرحومة ذهبت مع إسماعيل أفندي وبكري أفندي... أليس كذلك؟

ضرب العجوز بباطن كفّه على طرف الكرسي مؤكّدًا صحّة كلامه بعدما أظهر تأفّفًا من عودتها إلى الموضوع، إلّا أنّ هيلين لم تعر الأمر اهتمامًا، وتابعت...

ـ ما المغزى من ذهاب أمّي معهما تلك الليلة... وماذا حدث بعدئذ؟

أرخى العجوز رأسه على مسند الكرسي، وبدا كمن انتابته نوبة قلبيّة حين شخص بعينيه الضيّقتين نحو الأعلى. أشاحت بوجهها عنه كمن اقترف ذنبًا، ودخلت هي الأخرى دائرة

الصمت. شيئًا فشيئًا، اجتاحتها موجة تعب ووهن لدرجة لم تقوَ معها على رفع ساقها، بعدما أخذ الخدر يسري فيها كتيّار كهربائي خفيف. لاحت لها من بعيد صورة أمّها على سرير الموت.

رأت العروق الزرقاء البارزة على ظاهر كفّيها كأفاع صغيرة تطارد بعضها بين وديان التجاعيد التي التهمت يديها. فكّرت للحظات بالرجال الذين قبّلوا هاتين اليدين ومضوا نحو هاوية النسيان. تخيّلت إسماعيل أفندي ينحني على إحدى ركبتيه، ثم يقف ليأخذ أمّها من يدها ويدور بها على طاولات زبائن مخمورين يصفّقون لهما ويطلقون الصيحات، إلى أن ترتفع موسيقى صاخبة. تخيّلتهما يرقصان كجنينين رميا عن رأسيهما قبّعة الاختفاء، وظهرا فجاة على الرقعة الضيّقة بين طاولات بهو الفندق. ووسط هذا الضجيج والصخب، تلمح هيلين رجلاً نحيلاً يعتمر قبّعة أميركيّة يلوّح بها بين الفينة والأخرى، فتلمع فروة رأسه تحت أضواء الشموع المتراقصة.

يقف ويصرخ بأن تتوقّف الموسيقى، فيتوقّف كلّ شيء بلمح البصر حتى أمّها المستندة بظهرها العاري على كتف إسماعيل أفندي، تسترخي بعدما أمسك الأخير بخصرها مخافة أن تسقط. وما إن يطبق الصمت على هسيس المخمورين وتنقطع القهقهات، حتى يأخذ الرجل النحيل بالغناء ويعلو

صوته الرخيم فوق الرؤوس المطفأة برائحة الخمر، ويردّد الجميع من خلفه الأغنية ويعود الصخب إلى المكان وتعاود أمّها الدوران حول إسماعيل أفندي المنتشي برائحة عطرها.

لم تنتبه هيلين إلى يد العجوز وهي تربت على كتفها بعدما لمحها مغمضة العينين، بقيت للوهلة الأولى ضمن أجواء الحفل، وظنّت أنّ أحدهم وضع يده على كتفها:

ـ أعرف أنّ هذه المدينة أتعبتك طيلة الأشهر الماضية وأعرف مدى تلهّفك لكشف اللغز الذي جئت من أجله... كان بإمكاني منذ اليوم الأوّل، منذ عرفت قصّتك، أن أدلّك على إسماعيل أفندي وبكري أفندي... ربّما لم أكن متأكّدًا من الأمر وكانت لديّ بعض الشكوك، إلّا أنّني الآن على يقين أنّ أحدهما على الأقلّ هو من تبحثين عنه...

كانت ليلة طويلة... ما زلت أذكر أدقّ تفاصيلها... لم يتوقّف المطر حتى ساعات الصباح الأولى والبعض تحجّج به... استمرّت الحفلة حتى عندما تعبت الفرقة الموسيقيّة الإيطاليّة من العزف والغناء.. طلب منّي صاحب الفندق إرسال أحد الخدم ليأتي بسارة وفرقتها الموسيقيّة. كانوا يقيمون في مكان قريب من هنا يُسمّى بحسيتا... أيقظناهم من النوم وجئنا بهم لتبدأ الحفلة من جديد... إلّا أنّ إسماعيل أفندي وبكري أفندي غادرا الفندق برفقة المرحومة والدتك

بعدما دفع الاثنان كلّ تكاليف السهرة. . . لن أخفي عليك، ساد الكثير من اللمز والغمز بين الطاولات. حتى في اليوم التالي، تناقل بعض من الخدم الشائعات حول اختفاء المرحومة وزاد الأمر تأكيدًا أنّها ظلّت ثلاث ليال غائبة عن الفندق. عندما عادت، بدا عليها التعب والإرهاق.

الشيخ مقصود غربي

للأسبوع الرابع على التوالي، بدا العجوز كارو مشغولاً مع زبائنه القادمين من أرمينيا. عجائز يتأبّطون حقائبهم الكالحة وذكرياتهم الملطّخة بالدم، يتحرّكون ببطء، ويأكلون بصمت، يخرجون مع ساعات الصباح الأولى ولا يعودون إلّا قبيل المساء. حاولت هيلين أن تفهم سرّ اختفائهم اليومي. سألت العجوز الذي غمغم بمفردات لم تفهم كنهها. ألحّت عليه، فتهرّب من الإجابة كعادته مكتفيًا بقوله:

ـ يبحثون عن أقاربهم وأصدقائهم... الأرمن يقضون نصف أعمارهم في البحث عن أحبّتهم.

حارت هيلين في أمر الفندق، جميع زوّاره يبحثون عن إبرة في كومة قشّ، عن أشياء كانت ذات يوم غالية على قلوبهم.

أخذها الصداع لدرجة أنّها أحسّت برغبة في التقيّؤ. لم تخرج طوال اليوم من الفندق، ظلّت جالسة في البهو الفسيح لم تبرحه للحظة، حتى إنّ العجوز بدا متضايقًا منها. ربّما شعر أنّ زبونته الشقراء باتت تتدخّل في كلّ شيء، وتريد أن تعرف كلّ قصص نزلاء الفندق.

عرفت هيلين أنّ كارو بات يضيق بها ذرعًا وأصرّت أن تلعب هذا الدور علّه يرمي في وجهها كلّ الحقائق دفعة واحدة. إلّا أنّ العجوز بقي متماسكًا، لا لأنّه تمكّن من إبعادها حين دلّها على أبو الريح. قال إنّه الوحيد القادر على مساعدتها في البحث عن إسماعيل آغا ودلّها على المكان الذي يجلس فيه. عندما عرفت هيلين أنّه المطعم الملاصق للفندق، مطعم العندليب، صدّقت أنّ كارو يسلّمها مفتاحًا حقيقيًّا فراحت تسأله عن كيفيّة التعرّف إليه.

ـ أبو الريح كردي من عفرين يعرف سكّانها واحدًا واحدًا... ما عليكِ إلّا أن تجلسي على شرفة غرفتك مساء، حين يجلس أبو الريح لوحده على طاولته المقابلة لغرفتك ويحتسي الخمر حتى ساعة متأخّرة من الليل. ليس صعبًا عليك أن توقعيه في غرامك... هل أعلّمك كيف؟

قال كارو كلماته الأخيرة ورفع ضحكته عاليًا، ثم انصرف إلى كرّاس قديم كان على طرف طاولته. هل هذا كرّاس

جديد، سألته هيلين، فلم يكترث وبقي يبحث عن أمر ما.
كرّرت هيلين السؤال، فظلّ العجوز واجمًا كهيكل عظمي إلى أن أطبق الكرّاس بعصبيّة، وقال غاضبًا:

ـ في هذا الكرّاس أسماء العائلات الأرمنيّة التي لجأت إلى سوريا...

لأوّل مرّة بدا لها العجوز عصبيًّا ومعكّر المزاج، اعتذرت منه بصوت خفيض وابتعدت إلى ركن منزو من البهو. انشغل مع أرليت بترتيب أمور الغرف وراح يتحدّث إليها بالأرمنيّة. صعد ونزل الدرج مرارًا، إلى أن جلس مجدّدًا خلف طاولته ورشف من قهوته الباردة. كانت هيلين تراقبه بصمت. فكّرت بالصعود إلى غرفتها بعدما اجتاحها النعاس. أغمضت عينيها للحظات، حامت حول النفق الحلزوني المظلم، ثم تهاوت كريشة خفيفة...

فتحت عينيها على صوت العجوز وهو يدعوها لشرب فنجان قهوة. لم تدرِ كم من الوقت مضى عليها وهي نائمة على الكرسي الذي وشم ساعدها الأيسر بمربّعات صغيرة نتيجة خشونة قماشته الرماديّة. عاد العجوز بشوشًا بعدما أنهى أعماله وتفرّغ للإجابة على أسئلتها. اعتذر عندما برّر انشغاله عنها قائلاً:

ـ هؤلاء العجائز لم يبقَ لهم من العمر متّسع...

أساعدهم في البحث عن عناوين أقاربهم هنا في حلب. . . مساكين، نادرًا ما يلتقي أحدهم بقريب أو صديق، فأغلبهم صار تحت التراب. .

رشفت هيلين قهوتها وقرّرت أن تتركه على راحته ليقول ما عنده، بعد أن أيقنت أنّ إلحاحها الدائم لا يجدي نفعًا. ومثلما خمّنت، بدأ العجوز حديثه ببرودة أعصاب فأخبرها عن علاقته القديمة بأبو الريح وشرح لها عن بطولاته ونضاله الدائم ضدّ العدوّ المشترك بينهما، تركيا، التي نعتها بالفاشيّة والنازيّة. سرد لها كيف كان يجمع التبرّعات من أثرياء الأرمن، ويضعها في يد أبو الريح الذي كان بدوره يحوّلها للتنظيم ليستمرّ في قتاله الشرس ضدّ الجيش التركي. كال كارو المديح للتنظيم الذي تطوّع فيه حتى بعض شباب الأرمن ممّن آمنوا بمبادئه وبحربه المقدّسة. ثم عاد وشتم الأتراك ووصمهم بسفّاحين دخلوا التاريخ من بابه الدموي وبنوا أمجادهم على جماجم شعوب المنطقة.

لم تعطِ هيلين كلماته أهمّيّة كبيرة. انتظرته. تعبت من الحديث ولم تطفُ عليه القشدة التي انتظرتها طويلاً، فتجرّأت وسألته:

ـ ما الفائدة من أبو الريح، هل يعرف إسماعيل آغا؟

لكن سؤالها مرّ كجملة اعتراضيّة لم تستوقف العجوز الذي

مضى في حديثه عن الحرب المقدّسة التي يخوضها تنظيم أبو الريح ورفاقه مع عدوّهم المشترك، حكى عن مقاتلي التنظيم في الجبال البعيدة، عن الأوقات الطويلة التي يقضونها في تلقّي الدروس العقائديّة والتدريبات العسكريّة القاسية التي يتمرّسون عليها، عن صمتهم وجَلَدهم...

ـ يقضون أشهرًا عدّة لا يتحدّثون إلّا قليلاً... ممنوع عليهم الحبّ... يأكلون وجبتين باليوم... ومن يرفض الأوامر يكون مصيره قاسيًا... لا مكان بينهم للخيانة... هل تعرفين ستالين... نظامهم ستاليني... لولاهم، لمضت تركيا في دمويّتها... أرسلهم الله رحمة للشعوب التي تعيش على الأراضي التركيّة... أبو الريح أحد هؤلاء... ستتعرّفين إليه...

أخيرًا أوصلها العجوز إلى برّ الأمان، فحدّثها عن الفائدة من معرفتها بأبو الريح كدليل سياحي للمنطقة التي ينحدر منها إسماعيل آغا، وأشار عليها أن تذهب معه إلى منطقة عفرين وقراها لبدء بحثها.

ـ الكلّ يعرف أبو الريح، ربّما عرّفكِ على إسماعيل آغا أو دلّكِ على أحد أبنائه أو أقاربه. ثقي به كثيرًا، أنتِ في أمان عندما تكونين برفقته...

أتمّ العجوز جملته وانتصب على قدميه، أفرغ ما تبقّى من

القهوة في جوفه وكأنّ لسان حاله يقول انتهت الجلسة. وقفت هيلين واعترضت طريقه قبل أن ينصرف إلى عمله وقالت له متوسّلة:

ـ متى تعرّفني على أبو الريح، هذه الليلة؟

ـ يمكنك الذهاب إلى المطعم.. يجلس على الطاولة المواجهة لغرفتك تمامًا.. لا داعي لذهابي.. سيرحّب بك.. الكلّ يعرفه.

لم تفهم هيلين سرّ هروبه من اللقاء بأبو الريح بعد أن كال له كلّ هذا المديح. وقفت مستغربة، بينما دلف العجوز نحو الرواق الطويل المحاذي لطاولته. عادت وجلست في مكانها، أغمضت عينيها للحظات، فكّرت فيما يمكنها القيام به، فتحتهما على حركة المستخدمة أرليت المنهمكة في مسح بلاط البهو. قامت واقتربت منها مستفهمة عن غياب العجوز كارو، فأشارت إلى الدرج النازل نحو قبو الفندق.

كان مصباح كهربائي خافت ينير عتمة الدرج الحجري. تمسّكت هيلين بالدرابزون الحديدي مخافة أن تسقط، وصلت إلى باب خشبي موصد. رفعت يدها لتطرق على الباب. تردّدت. شعرت برهبة المكان، بينما أخذت دقّات قلبها تتسارع. خافت أن يخرج إليها شخص آخر بهيئة عفريت. تخيّلته بأذنين كبيرتين وعينين مدوّرتين جاحظتين. مسحت

الصورة من مخيّلتها. قرّبت أذنها من الباب علّها تسمع سعالاً أو حركة. استجمعت قواها ودقّت الباب بقبضتها. طرقات خفيفة بالكاد تسمع. لم يفتح أحد. فكّرت بما يفعله العجوز كلّما نزل هذا القبو الغامض. هذه هي المرّة الثالثة التي تنتبه لغيابه فيه. في المرّة الماضية لاحظت عليه علامات التعب والإجهاد وهو يخرج منه. سألته إن كان يعاني من مرض ما. بدا محرجًا ومتلبّكًا في إجابته. أعاد تعبه إلى صعود الدرج، وسرعان ما غيّر الموضوع ونقلها إلى ضفّة أخرى. صدّقته ولم تبالِ بالأمر. إنّما الآن تساورها الشكوك. في الأمر سرّ ما. غيابه المتكرّر كلّ بضعة أيّام، لم يعد بالنسبة لها أمرًا طبيعيًّا. ثم لماذا يغلق على نفسه الباب؟ طرقت بقوّة أكبر. استرقت السمع.. بلا فائدة.

قرّرت الجلوس على حافّة الدرج، بعدما بدّدت دقّاتها على الباب غيوم مخاوفها. ستنتظره ريثما يفتح. أكثر من مرّة، انتابها الشعور أنّ ما تبحث عنه يختبئ في مكان ما من القبو، وأنّ العجوز لم يفرد كلّ أوراقه بعد. رمت برأسها الصغير بين كفّيها بعدما أسندت مرفقيها على ركبتيها. ظلّت على هذه الحالة بلا حركة، متربّصة كقطّ شرس بفأر.

مرّت الدقائق ثقيلة كعربة تصعد منحدرًا قاسيًا، قبل أن تسمع صوت مزلاج الباب القديم يتحرّك محدثًا جلبة. فتح

العجوز الباب. لم ينتبه إليها بداية الأمر. كان مشغولاً بترتيب هندامه وما إن أوصد الباب، حتى تفاجأ بها. وقف مشدوهًا كلصّ هاله مرأى صاحب البيت. ارتبك قليلاً. التفت إلى الباب وتظاهر بإقفاله ريثما ينتهي من ترتيب نفسه، ثم قال بصوت متهدّج:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

تصنّعت هيلين اللامبالاة. أبدت انشغالها بالدرابزون. مرّرت يدها بين قضبانه المزخرفة. التفت إليها العجوز محاولاً إبعاد عينيه عن مرمى عينيها. كرّر سؤاله بصيغة التودّد:

ـ هل.. هل يلزمك شيء؟

ضحكت هيلين بصوت عال. أشارت بإصبعها إلى الباب الخشبي. نظر العجوز إلى الباب ثم إليها، بدا مرتبكًا أكثر ممّا كان. هزّ رأسه مستفهمًا. همست هيلين بصوت خفيض:

ـ هل يمكنني رؤية القبو؟

تنهّد العجوز وبعصبيّة صعد الدرج. سمعت صوت أنفاسه المتلاحقة وهو يمرّ بجانبها. لحقت به وصارت أمامه بلمح البصر. أحنت رأسها واعتذرت.

لم تتوقّع هيلين أن يمتلك هذا الرجل الضخم، ذو الشوارب العريضة والشعر الكثّ، إرثًا غنيًّا من التجربة والحنكة والدهاء. للوهلة الأولى، ظنّته رجلاً عاديًّا عندما التقت به جالسًا لوحده في إحدى زوايا مطعم العندليب، يحتسي الخمرة لساعة متأخّرة من الليل، مثله مثل باقي الرجال، ثم يعود مترنّحًا إلى منزله، يتوسّد سكرته، وينام مطروحًا من السهر.

ليس لـ «أبو الريح» ذي الوجه العريض والتجاعيد القاسية، زوجة ولا حتى ولد. قضى نصف عمره متنقّلاً من سجن إلى آخر، بين دمشق وحلب، إلى أن أُفرج عنه منذ بضع سنوات، بعد أن ساءت حالته الصحِّيّة لدرجة جعلته يبدو في العقد السادس، مع أنّه بالكاد تخطّى الأربعين. إلّا أنّ قسوة السجن

والضغط والتعذيب لم تخمد بريق عينيه ونظرته الحادّة التي استمرّت توغل بعيدًا، مربكة كلّ من يجالسه. لذا ابتعد عنه الأصدقاء وتحاشاه الأقرباء، وهرب كلّ من تعرّف إليه من جديد.

لم يعرف الناس عن أبو الريح الشيء الكثير، سوى أنّه دخل السجن بعدما طعن أعزّ أصدقائه وأرداه صريعًا لأنّه كال الشتائم لزعيم حزبه السياسي. ثمّة من قال إنّ أبو الريح أمهله يومًا كاملاً ليتراجع عن شتائمه ويقدّم اعتذاره، إلّا أنّه استهتر بالأمر. فما كان من أبو الريح إلّا أن ذهب إليه، طرق بابه، وعاجله بطعنة واحدة كانت كافية لقتله. وهناك من أكّد أنّ أبو الريح لم يمهله يومًا ولا حتى لحظة، إذ غرز سكّينه الحادّة في صدره صارخًا بمن كان حاضرًا في المجلس: هذه هي نهاية الخونة! ثم مضى.

بعد يومين، ألقت الشرطة القبض عليه، في مطعم العندليب. لم ينكر فعلته. فاخر بها حتى عندما وقف أمام قاضي التحقيق. سأله القاضي: لماذا طعنت المغدور؟ أجاب باقتضاب: لأنّه شتم الزعيم. أردف القاضي متعجّبًا: أيّ زعيم؟ رفع أبو الريح يديه المقيّدتين وعضّ قميصه عند الكتف، حتى تمزّق، ثم قال: هذا هو. عقد القاضي حاجبيه وحدّق جيّدًا. كانت كلمة أوجلان موشومة بلون أزرق غامق على

الكتف العريضة. فغر القاضي فاه، ثم هتف غاضبًا لعنصر الشرطة: خذه من أمامي!

قضى أبو الريح أوّل عشر سنوات من عقوبته قاضيًا يحتكم إليه السجناء. ينصف هذا ويحكم على ذاك، فيأمر مثلاً فلانًا بغسل ثياب فلان أسبوعًا أو شهرًا، بحسب خطورة الجنحة. يقال إنّه ذات مرّة عاقب حارس السجن فحرمه من الإتاوات شهرًا كاملاً، فما كان من الأخير إلّا أن وسّط بعض المساجين المقرّبين من أبو الريح لكي يرضى عليه، وعادت المياه إلى مجاريها بعد حين. ولم تكن سطوته على السجن نتيجة امتلاكه لبنية جسديّة قويّة فقط، بل كان هناك سرّ آخر. فقد تحوّل العامل البسيط في مشغل للخياطة في حيّ الأشرفية، وهو أكثف أحياء حلب سكنيًا، إلى رجل ميسور يتلاعب بالمال. على عكس كلّ المساجين، لقد أثرى السجن أبو الريح!

قضى أبو الريح طفولته في الريف الشمالي من حلب، كان والده مزارعًا فقيرًا لا يملك سوى بضع شجرات زيتون لا تكفي لسدّ رمق أسرته الكبيرة. بين ليلة وضحاها، باع كرم الزيتون وسافر إلى حلب على أمل أن يجد عملاً يعيل به أسرته. استقرّت به الحال في دار صغيرة، في الحيّ الغربي من الشيخ مقصود. بعد وعود عدّة من الأقرباء والمعارف، وجد عملاً في مدبغة للجلود. كانت مهمّته نقل الجلود المسلوخة توًّا

عن الأغنام والأبقار، إلى مستودع المدبغة. في بادئ الأمر، تحمّس للعمل بعدما ضرب أخماسه بأسداسه، فوجد أنّ شهرين من العمل يعادلان ما يجنيه في موسم كامل يكون فيه الزيتون في أوج عطائه.

بعد يومي عمل، خارت عزيمته. رائحة الجلود الكريهة ورطوبة الدم المتجمّد على أطرافها، كانتا كفيلتين بأن يحنّ سريعًا إلى القرية وإلى هوائها الذي يشرح الصدر. إلّا أنّ إغراء الأجر المرتفع ونصائح المقرّبين، جعلته يتردّد شهرًا كاملاً بين أن يترك العمل فيعود أدراجه، وبين أن يستمرّ في عمله الشاقّ متحمّلاً الرائحة والرطوبة، وفوقها نزق الذباب الذي كان، بحسب تعبيره، يلتصق بحوافي منخريه وعينيه ولا يأبه بيده التي لا تتوقّف عن التلويح أمام وجهه، في محاولة منه لإبعاده.

بعد شهر، تجدّدت عزيمته عندما قبض الراتب الأوّل وعاد إلى البيت محمّلاً بأكياس ملأى بالمأكولات. كان عيدًا حقيقيًّا جعل والد أبو الريح ينسى التعب وهو يفرد الأغراض أمام أولاده الخمسة وزوجته التي كانت تعدّ أيّامها الأخيرة قبل أن تضع له مولودها السادس.

تآلف والد أبو الريح مع عمله وصار قليل الشكوى، نسي القرية بمن فيها وصار لا يتذكّرها إلّا في مناسبات العزاء والأفراح. أمّا أولاده، فانخرطوا مع أولاد الحيّ وتعرّفوا

سريعًا على المدينة وأجوائها. ولأنّ أبو الريح أكبر إخوته، فقد كان يقودهم، تاركًا لأمّه شقيقه الصغير وأخته الوحيدة التي تصغره بسنتين لتساعد في إدارة أمور المنزل.

بداية الأمر، وجد أبو الريح من يدلّه على عمل سهل استهواه سريعًا. كان يجول الشوارع مع شقيقيه يلملمان من الأزقّة والشوارع وحاويات القمامة، علب البيبسي كولا الفارغة وعلب الكرتون وجميع أصناف الزجاج والبلاستيك. فيما بعد، وزّع أبو الريح المهام فصار هو مسؤولاً عن الورق المقوّى وعلب الكرتون، استلم شقيقه عكيد جمع علب البيسي، وتخصّص مظلوم بأصناف الزجاج والبلاستيك.

يومًا بعد آخر، تحسّنت أحوال العائلة وازدادت مصاريفها بعدما ذاقت طعم الحياة في المدينة وأوغلت بعيدًا في ملذّاتها. لم تدم هذه الحالة طويلاً مع أبو الريح، بعدما تعرّف على مجموعة من الشباب المتحمّس لأفكار الزعيم. مهّدوا له الطريق لينخرط في صفوف التنظيم، فالتحق بمعسكر مغلق بمنزل معزول عن العالم الخارجي، في إحدى الحارات النائية خارج حدود المدينة، حتى إنّ والده لم يكن يعلم بمكانه. كان واثقًا أنّ ابنه بين أيد أمينة، فقد كانت له هو أيضًا، صلات قديمة مع كوادر التنظيم.

عاد أبو الريح، بعد حوالى العام، شخصًا آخر. بات أكثر

حدّة وجدّيّة، لا يحبّ المزاح ولا يضحك إلّا باقتضاب شديد، جلّ أحاديثه تتناول مآثر الثوّار في الجبال، يُكثر من الاستشهاد بأقوال الزعيم وقد حفظها عن ظهر قلب، ويملي على أفراد عائلته عادات معيّنة، مؤكّدًا أنّ الزعيم يمارسها في حياته اليوميّة: النهوض باكرًا والقيام ببعض التمارين الرياضيّة، ومن ثم تناول الفطور بصمت. أمّا الفترة المسائيّة، فكانت للثقافة.

ورغم أنّ أبو الريح دخل المدرسة لثلاث سنوات فقط قبل أن يهجرها إلى الأبد، فقد كان يأخذ دور المعلّم فيمسك بإحدى منشورات التنظيم ويقرأ محاولاً تفسيرها. حتى إنّ أخته التي وصلت للصفّ الثامن، قبل أن تتفرّغ هي الأخرى للعمل التنظيمي، كانت تبتسم عندما يعطي تفسيرًا ما لا علاقة له بالمقصود. يومًا بعد آخر، راح مركزه يرتقي داخل التنظيم، خاصّة بعدما عمل في مشغل للخياطة كان كلّ عمّاله من كوادر التنظيم، وكان أبو الريح يقودهم ويشرف على عملهم الذي يعود أغلب ريعه لدعم التنظيم. كان أيضًا يدير جلسات النقاش والحوار والبرامج الثقافيّة بعد أن تبلورت شخصيّته وصقلت بالمران والتجربة. في ما بعد، تفرّغ كلّيًّا للعمل التنظيمي. يخرج صباحًا ولا يعود أحيانًا إلّا بعد أيّام. لا أحد يسأله أين كنت وأين ذهبت وماذا فعلت، ولا هو يخبر أحدًا عن مواعيد اختفائه. غاب ذات مرّة قرابة الشهرين، فقلقت عليه أمّه ولعب

الفأر بعقل والده، إلّا أنّه لم يبدِ تذمّرًا. وما إن عاد حتى سألته أمّه:

ـ انشغل فكرنا عليك... أين كنت؟

فما كان من أبو الريح إلّا أن ثار، وبعصبيّة وضع فنجان القهوة الذي كان بين يديه وقام على الفور ليغادر المنزل شهرًا آخر. منذ ذلك الحين، امتنع الكلّ عن سؤاله عمّا يفعل، لضرورات تنظيميّة وأمنيّة، إلى أن جاء ذاك اليوم حيث التقى أبو الريح مع صديقه وشريكه القديم في جمع علب الببسي والزجاجات الفارغة. تعانق الاثنان وتبادلا المجاملات والأسئلة عن الأحوال والأوضاع، وسرعان ما اكتشف أبو الريح تحسّنًا في أحوال صديقه الذي أخبره أنّه اشترى سيّارة شحن صغيرة وصار لديه بضعة عمّال يعملون لحسابه. مدّ أبو الريح يده إلى جيب قميص صديقه وأخرج علبة دخان أميركي قائلاً:

ـ مارلبورو أميركي! وضعك جيّد إذًا..

ابتسم صديقه، فتح علبة الدخان ومدّ إليه سيجارة رفض أبو الريح أخذها، قائلاً بحدّة:

ـ عليك أن تدفع ضريبة... غيرك يضحّي بدمه وماله... وأنت تدخّن المارلبورو الأميركي!

حاول جاهدًا أن يستميل صديقه لصفوف التنظيم. تكرّرت لقاءاتهما إلى أن وقعت الحادثة، بعدما أن ملّ أبو الريح وضاق ذرعًا باستهتار صديقه بالزعيم وتنظيمه.

تضاربت الأقاويل حول حيثيّات الجريمة، إلّا أنّ النتيجة كانت هي هي. انتهى صديقه في المقبرة، وسيق هو إلى السجن حيث طرأت تحوّلات جذريّة على شخصيّته، رغم حفاظه على نهجه وولائه للزعيم.

سرعان ما تآلف أبو الريح مع وضعه الجديد. لقد أدرك أنّ البقاء في السجن هو للأقوى ولمن يمتلك مالاً يشتري به المساجين والسجانين محوّلاً محكوميّته إلى شهر عسل. درس الأوضاع جيّدًا، مستفيدًا من خبرته وثقافته التنظيميّة، فلاحظ أنّ أغلب المساجين يتعاطون نوعًا من المخدّر ـ حبّة صغيرة كحبّة العدس يضعونها تحت اللسان، وما هي إلّا دقائق حتى يحلّقون بعيدًا، ما وراء أوجاعهم المسوّرة بجدران السجن المنيعة. فتّش عن مصدر الحبوب، إلى أن تعرّف على مورّديها ومن يشترونها. سال لعابه عندما سأل عن سعر الحبّة الواحدة. أكثر من ألف ليرة. فغامر بالألف الوحيدة التي بقيت بحوزته واشترى حبّة. كانت أحوال أهله قد تدهورت. التحقت أخته وشقيقه الذي يصغره بالمقاتلين في جبال قنديل التركيّة، وصارت أمّه لا تزوره إلّا مرّة واحدة في السنة، بعدما أصيب

أبوه بجلطة دماغيّة جعلته طريح الفراش.

عاش أبو الريح أيّامه في السجن منسيًّا. اشترى الحبّة من أحد المساجين، وضعها داخل وريقة صغيرة خبّأها في زاوية جيبه. يخرجها من وقت ويتأمّلها، يدقّق في شكلها. مستديرة ومفلطحة من جانبيها، على أحد وجهيها وشم غائر لرأس حصان، لونها أبيض مائل إلى الصفرة. ظلّ لبضعة أيّام يقارن بين لونها، وبين لون حجر زال عنه الإسمنت، في إحدى زوايا السجن. كان قد خدش قطعة صغيرة من الحجارة الكلسيّة الرطبة، ووضعها في جيبه. ظلّ يفكّر بالحبّة، كانت المشكلة عنده في رأس الحصان الغائر على أحد وجهيها.

جهّز بعض الأدوات الحادّة التي استخلصها من بقايا علبة سردين، تحصّل على إبرة من أحد المساجين، وراح يجري تجاربه على الحجرة الكلسيّة، بعيدًا عن أعين المساجين. تارة يدخل المرحاض بحجّة قضاء حاجة، وما أن يسدل الستارة القماشيّة البالية التي تفصله عن بهو السجن، حتى يخرج أدواته المعدنيّة الصغيرة، ويأخذ بنحت وتشذيب القطعة الكلسيّة. في أحايين كثيرة، كان لا يخرج إلى النزهة اليوميّة بحجّة المرض. يتظاهر أنّه لا يقوى على المشي، ينفرد بنفسه ويبدأ العمل.

بعد أيّام من المحاولة، تمكّن من صنع حبّة من الكلس الطريّ تأخذ بالانحلال ما إن يلامسهااللعاب. نجحت التجربة

وصار بإمكان أبو الريح أن يبدأ بإنتاج حبّاته التي لا يمكن تمييزها عن الحبّة الأصليّة. حتى الوشم الغائر نسخه بحرفيّة عالية لدرجة لم يعد معها يميّز بين الحبّة الأصلية وحبوبه المزوّرة. بعد تفكير عميق، قرّر البدء ببيع حبوبه، ضاربًا عصفورين بحجر واحد.

بسرعة هائلة، تحوّل أبو الريح إلى زعيم صغير شبيه بزعيمه الكبير. وشيئًا فشيئًا، بدأ يفرض قوانينه وأفكاره، مساهمًا في دعم صندوق التنظيم. طرح أفكاره سرًّا على أحد المقرّبين إليه من المساجين. كان هذا الأخير كرديًّا ينتمي إلى شريحة ذات أصول إقطاعيّة. ومع ذلك، استطاع أبو الريح أن يلقّنه شيئًا من أفكار الزعيم. كان قد تعلّم في التنظيم عدم الثقة بمن كان سليل الإقطاع، وأنّ المال لا دين ولا وطن له. لذا، ترك مسافة أمان كافية بينه وبين ذلك الرجل الذي كانت تصله المؤن والمدد إلى داخل السجن. كان ذا سطوة ويحسب له ألف حساب، فتحاشاه الكلّ وتودّدوا إليه.

طرح أبو الريح موضوع حبوب الكيف عليه، بعد أن رآه يأخذ كلّ يوم حبّة. حتى إنّه كان في بعض الأيّام لا يكتفي بحبّة واحدة، إذ يروح عمّن يبيعه أو يقرضه حبّة ولو بثمن مضاعف. عندما فاتحه أبو الريح بالموضوع وبإمكانيّة توفير الكمّيّة التي يريد وبأسعار منافسة، ابتسم الرجل سليل الإقطاع

وقال: عجبتني، الأقوال والشعارات والزعيم ما بطعمو خبز...

انزعج أبو الريح قليلاً، ابتلع ريقه على مضض، وراح يقنعه أنّ بإمكان أحدهم تمرير الحبوب له وبسعر مغر، وما عليهما سوى تصريفها. وافق الرجل وقرّر أن يكون أوّل الزبائن، فأعطاه أبو الريح حبّة وقبض نصف ما كان يدفعه الرجل للسجّانين. راقبه أبو الريح وهو يضع يده على قلبه، خشية أن يفتضح أمره وينكشف سرّه، إلّا أنّ الرجل حلّق عاليًا بعد نصف ساعة، كطائر بأربعة أجنحة.

تفاجأ أبو الريح بمفعول حبّته الكلسيّة. عزل الحبّة الأصليّة بعد جهد جهيد وخبّأها في مكان آمن بين ثيابه. تردّد مرارًا قبل أن يبيع الرجل حبّة مزوّرة، فسليل الإقطاع له باع طويل في تعاطي الحبوب، ولن تمرّ عليه اللعبة مرور الكرام. إلّا أنّ النتيجة جاءت مذهلة. وضع الرجل الحبّة في كفّه وقلّبها مرّات عدّة. انخطف لون أبو الريح قلقًا. وما إن وضع الرجل الحبّة تحت لسانه، تنفّس الصعداء. شكل الحبّة الخارجي مقنع! يبقى المفعول. حذّر أبو الريح الرجل بأنّ مفعول هذه الحبّة بطيء وقد تستغرقه وقتًا أطول لبلوغ النشوة. هزّ الرجل رأسه هامسًا بصوته الأجشّ: هذا أفضل... المهمّ أن تتوافر بشكل دائم... راح أبو الريح يهمس في أذن الرجل بأنّه بدأ

يدخل في الحالة، فوجهه قد احمرّ وعيناه جحظتا. انتبه إلى خطاك، همس له مبتسمًا وهو يمدّ ذراعه كي يسنده في مشيته...

نجح أبو الريح. أقنع الرجل بمفعول حبّته وصار يومًا بعد آخر، ينشط لمساعدة الرجل سليل الإقطاع. بسط سيطرته على السجن لدرجة أنّ السجّانين ضاقوا ذرعًا به وحاولوا كشف الشبكة التي تمدّه بالبضاعة. لكنّهم استنتجوا أنّ من يقفون خلف أبو الريح ويمدّونه بالبضاعة، هم أشدّ سطوة ونفوذًا منهم، فتحوّلوا إلى أجراء عنده، يأخذون منه الحبوب المزيّفة، ليسوّقوها في المهاجع المجاورة.

تطوّرت أحوال أبو الريح لدرجة أنّه راح يمدّ أهله والتنظيم بالمال، عبر أحد السجّانين، بعدما اشترى ثقته وذمته، فتحوّل إلى وسيط بينه وبين العالم الخارجي. هكذا كسب لقب أبو الريح، إذ كان قادرًا، في لحظات، على جعلهم يحلّقون عاليًا، وكأنّ ريحًا عاتية ترفعهم وتقذف بهم بعيدًا فينسون ما هم فيه ويعيشون لساعات في جنّات تجري من تحتها الأنهار.

خلال عامين كاملين، لم يتمكّن أحد من دكّ إمبراطوريّة أبو الريح التي كانت تتوطّد وتتوسّع يومًا بعد آخر. إلى أن جاء ذاك اليوم المشؤوم. ناداه أحد السجّانين وهمس في أذنه عبر الكوّة الصغيرة لباب المهجع، فانهار أبو الريح والتفّ من حوله

الجميع، ظنًّا منهم أنّ والده المريض قد مات. اهتمّوا به اهتمامًا شديدًا، وأبو الريح لا يتحدّث ولا يأكل ولا يغمض له جفن، خلال أيّام. حاول سليل الإقطاع جاهدًا فكّ شيفرة كآبته، ودارت في المهاجع إشاعات كثيرة عزا بعضها الأمر إلى انتقال الرجل الخفي الذي كان يمدّ أبو الريح بالحبوب إلى سجن آخر، فيما روّج بعضها الآخر لحكاية غرام بائسة بفتاة تخلّت عنه وتزوّجت قبل أن يفوتها قطار العمر. قيل أيضًا إنّ السجّانين يتهامسون فيما بينهم ويتوقّعون نقله إلى سجن بعيد، مخصّص للسجناء السياسيين.

في هذه الأثناء، عاد من كان يروّج للحبوب من السجّانين والمساجين ليعتلي صهوة جواده من جديد. ارتفعت الأسعار بشكل جنوني وبقي أبو الريح غارقًا في صمته. يسهر الليل بطوله متفكّرًا، مسندًا ظهره إلى الجدار. تخلّى عنه من كان يكنّ له الطاعة والولاء، وحده سليل الإقطاع بقي بقربه، يتدبّر أموره ويطعمه ويسقيه، ويشذّب ألسنة الشامتين والحاقدين. إلى أن جاء ذاك اليوم الذي بقّ فيه أبو الريح البحصة فأخبره بالسرّ الذي قضّ مضجعه وغيّر أحواله.

لطم سليل الإقطاع خدّه بكفّه العريضة، ثم نظر حوله بارتياب، قبل أن يتوجّه إلى المرحاض حيث غاب قليلاً. حين عاد مبلّل الشعر والوجه، وقف أمام أبو الريح وقال بصوت

عال بلغ مسامع كلّ المساجين: كلّ هذا الحزن والصمت لأنّهم قبضوا على الزعيم... بجهنّم الحمرا إن شاء الله... ثم رمى تحت لسانه حبّة صفراء وشرع بتحضير إبريق شاي.

منذ تلك الليلة، تخلّى عن أبو الريح ولم يعد يسأل عنه أو يهتمّ به. وعندما ساءت حالته الصحّيّة، توقّع الكثيرون أن ترجع صداقتهما، إلّا أنّ سليل الإقطاع لم يولِ الأمر اهتمامًا والتفت إلى نفسه.

قضى أبو الريح ما تبقّى من محكوميّته، ذليلاً خانعًا لأوامر غيره من المساجين، مبقيًا سرّ حبوبه المزيّفة طيّ الكتمان. وعندما أنهى محكوميّته، لم يعرف أحد شيئًا عن العشرين سنة التي قضاها في السجن. رجع رجلاً عاديًّا كتومًا لا يتحدّث إلّا نادرًا. رصد له أخوه الصغير الذي غدا رجلاً ذا نعمة وجاه راتبًا شهريًّا من دون أن يعرف عنه أيّ شيء. كان أبو الريح يمرّ عليه في آخر كلّ شهر، يقبض وينصرف دون أن ينبس بحرف واحد. ثم تعرّف إلى هيلين...

.

كانت هيلين تجلس في شرفتها كلّ مساء، وترى الرجل الجالس وحيدًا إلى طاولته في مطعم العندليب، المطلّ من جهته الجنوبيّة على فندق بارون. انتبهت إليه أكثر من مرّة، يجلس إلى الطاولة نفسها وفي التوقيت نفسه. راقبته ونسجت حوله قصصًا وحكايات. كان الأمر مجرّد تسلية، إلى أن انتبهت أنّه بدوره يراقبها وربّما نسج حولها الكثير من التخمينات.

وذات يوم، أشار لها ملوّحًا بيده. بادلته الإشارة. رفع كأس خمرته عاليًا، ففهمت أنّه يدعوها، دخلت غرفتها وبدّلت ثياب نومها وخرجت بعدما أعلمت كارو بوجهتها. دخلت المطعم الذي كان يضجّ بروّاده السكارى وأغلبهم من الذكور، باستثناء بعض سائحات تحلّقن حول طاولة منزوية.

مشت هيلين بين الطاولات المتحاشرة حتى وصلت إلى طاولة أبو الريح، فقام ورحّب بها، مبتسمًا ودودًا. نظرت هيلين إلى طاولته الفقيرة، بطحة عرق، كأس، صحن صلصة. سحبت الكرسي وجلست قبالته. كلّمته بمفردات عربيّة، رغم ثقل لسانها:

ـ أنا هيلين... بريطانيّة... أسكن فندق بارون...

قالت ذلك وأشارت إلى شرفتها. ضحك أبو الريح. لأوّل مرّة منذ عقدين. بانت أسنانه الصفراء المطليّة بنيكوتين السجائر:

ـ أعرف... أنا أبو الريح...

قطّبت هيلين حاجبيها بعدما سمعت اسمه وتلفّظت به أكثر من مرّة متسائلة عن معناه. نفخ أبو الريح على جذوة سيجارته الحمراء الطويلة، فالتقطت هيلين المعنى وأطلقت ضحكة قويّة مستغربة، قبل أن تسأله عن سرّ حمله لهذا اللقب. سرد لها أبو الريح صيرورة حياته، بدءًا من القرية وانتهاء بالسجن. قفز فوق الجريمة التي اقترفها بحقّ صديقه، وعزا سبب دخوله السجن إلى أنشطته السياسيّة مع التنظيم وحبّه للزعيم، مبديًا استغرابه كون هيلين لم تسمع بزعيم بمثل أهمِّيّته ولم تطّلع على آرائه وطروحاته.

لأوّل مرّة منذ خروجه من السجن، بدا أبو الريح منطلقًا

في حديثه كما كان أيّام زمان. وكأنّ عقده حُلّت دفعة واحدة، حتى إنّ العمّال القائمين على خدمة المطعم تفاجأوا به يتحدّث بصوت عال، يضحك ويؤشّر بيديه، وينادي عليهم بصوت عال. لم يعهدوه من قبل إلّا رجلاً صامتًا متأمّلاً، قليل الحركة، يأتي بهدوء وينصرف بهدوء. الليلة غيّر المعادلة وبدا قادرًا على إدارة المطعم بمن فيه.

انتصف الليل وأبو الريح في أوج نشاطه يتحدّث إلى هيلين كمذياع علّق كلّ برامجه الترفيهيّة في يوم مهيب. بدا كمسؤول صال وجال بعيدًا، راقب وحلّل ورسم مستقبل العالم واعدًا بنقل البشريّة من الفوضى إلى النظام.

لم تفهم هيلين الكثير ممّا قاله، اكتفت بهزّ رأسها وهي تصغي له. ظلّت تشرب من كأس البيرة أمامها، إلى أن غزا النعاس جفنيها. انتبه أبو الريح إلى تثاؤبها وتململها في جلستها. التفتت نحو شرفة غرفتها في الفندق، شكرته على البيرة واستأذنته بالانصراف على أمل لقاء آخر.

راقبها أبو الريح وهي تبتعد. أحسّ بقلبه يخفق بقوّة. أشعل سيجارة وراح يصغي لدقّاته تتوالى عبر طبلتي أذنيه. رفع عينيه إلى شرفتها واطمأنّ إلى وصولها حين شعّ الضوء من داخلها. احتسى ما تبقّى من خمر في قعر كأسه، وظلّ يحدّق في شرفتها إلى أن أطفأت النور. أغلق عينيه وانسلّ في خياله

الصدئ المعطوب إلى غرفتها. تخيّلها ممدّدة على السرير، شبه عارية، وهي تغطّ بعمق. دنا منها وهو يمشي على رؤوس أصابعه، كاتمًا أنفاسه المتهدّجة أمام روعة جمالها الساكن كبحيرة بلا قاع. حاول الاقتراب أكثر، فخانته قواه في تخطّي المسافة الفاصلة بينه وبين السرير. جثا على ركبتيه وبدا كتمثال حجري قُصفت ركبتاه. تمنّى لو استطاع الاقتراب لملامسة قدميها الناعمتين كمنديل معطّر. استند على يديه محاولاً النهوض بجسده الذي تحوّل عبئًا ثقيلاً على كتفيه. أنقذه صوت النادل وهو يقف قبالة وجهه المتواري بين كفّيه الشاسعين، ممسكًا بفاتورة الحساب، وهو يقول:

ـ كنت أظنّك بسيطًا كسهل واضح.

أمسك أبو الريح فاتورة الحساب، وبخبث ومن دون أن يرفع رأسه، أجاب:

ـ وماذا وجدت؟

سحب النادل كرسيًّا جلس على طرفه، تلفّت من حوله كالمرتاب بأمر ما، ثم مدّ رأسه وقال:

ـ سمعتك تحدّثها عن الزعيم، هل هي صحافيّة؟

أفلت أبو الريح من بين شفتيه ضحكة ساخرة، ثم أخرج من جيب قميصه عدّة أوراق نقديّة، تاركًا النادل في حالة

ترقّب. مدّ النادل يده وشدّ على أصابع أبو الريح:

ـ كرمال الزعيم الحساب عليّ. . . ماشي.

نادى صاحب المطعم عليه، فقام ومشى خطوتين، قبل أن يعود إلى أبو الريح، فيهمس له:

ـ انتبه إلى نفسك، المطعم مليء بالعيون.

قالها وولج القسم الداخلي من المطعم. لم يُبدِ أبو الريح أيّ اكتراث. نظر إلى ساعة يده ثم قام بهدوء واتّجه نحو الباب المؤدّي بدرجه الضيّق الملتوي إلى الشارع. توقّف ليشعل سيجارة، ثم حاذى فندق بارون الملاصق للمطعم. تأمّل واجهته المطلّة على الشارع، ثم استدار ليستقلّ سيّارة أجرة حملته باتّجاه حيّ الشيخ مقصود، القسم الغربي.

تلك الليلة عاند النوم جفني أبو الريح. ظلّ يتقلب يمينًا وشمالاً ويفكّر بهيلين التي فتّقت قروحًا كانت قد يبست في صدره منذ أمد بعيد. هذه هي المرّة الأولى التي يخفق فيه قلبه هكذا. شعر به يكاد يُقتلع من شرايينه. نفث الكثير من الدخان ليلتها. زرع الغرفة بخطواته إلى أن أطلّ عليه الفجر. لم يكن راغبًا بالنوم. تمنّى لو أنّ عقارب الساعة الكسولة في معصمه الأيسر تخطّت رتابة دقّاتها وطوت الزمن بلمح البصر، ليعود إلى طاولته قبالة شرفتها. وما إن يلمحها، حتى يشير لها بأن تأتي، وما إن تأتي سيبوح لها بالأرق الذي كابده ليلة أمس:

ـ. . أنا أبو الريح. . . لم يلوِ أحد ساعدي. . إلّا عينيك. . . أحبّك أحبّك!

ظلّ يرسم صورتها حتى انتصف النهار. تبادل الأدوار بينه وبينها. يقول لها أحبّك، تصمت ثم تقول له بالإنكليزيّة (آي لاف يو). يأخذها من يدها ويقبّل أصابعها، يلفّ خصرها النحيل بذراعه، يحملها في الهواء دورة كاملة غير مكترث بفضول عيون المارّة على حواشي الأرصفة، بينما هو غارق في انتزاع قبلة من حوافّ شفتيها الرطبتين. يطلق العنان لمشاعره الأسيرة. يغدو طفلاً مجنونًا بلعبته الشقراء. يقذف بها نحو الأعلى فيتطاير فستانها القصير ويكشف عن ساقيها وما بينهما من تفاصيل، يلعب معها إلى أن يأخذه التعب، فيرتمي على صدرها وينام إلى الأبد.

بنى بقرميد الأحلام الواهية عالمه الجديد، لم يغمض له جفن، إلى أن حلّ المساء من جديد. بطيئًا ثقيلاً، مع أنّ الوقت ما زال باكرًا، ولّى نحو مطعم العندليب. جلس إلى طاولته وطلب من النادل شوكت ليترًا من العرق. تفاجأ شوكت بطلبه، فهو بالعادة يأخذ ربعًا. حاول أن يثنيه عن طلب الليتر، إلّا أنّه أذعن بعدما لمح إصرارًا في عينيه الذابلتين. ظلّ أبو الريح يحتسي كأسًا تلو الأخرى فيما عيناه ملتصقتان بباب شرفة غرفتها الموصد.

مع مرور الدقائق والساعات، ازداد قلقه. انتصف الليل وانتصفت زجاجة العرق، وبقي الظلام مخيّمًا على الستارة

المنسدلة على الطرف الأيمن من الباب المفتوح نصف فتحة. هبّت نسمة هواء حرّكت أذيال الستارة. فتح عينيه على اتّساعهما. تمنّى لحظتها لو أنّ ريحًا عاتية هبّت وهزّت أركان المكان، قلعت الشجر والحجر، مزّقت الستارة إربًا إربًا وفتحت الباب على مصراعيه، كي يلمحها نائمة على سريرها وقد انكشف جزء من ساقيها وظهرها الأملس.

انتظر طويلاً حتى بدأ المطعم يرتاح من ضجيج زبائنه السكارى بعدما خارت قواهم وجاوزت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

اقترب منه شوكت، وضع يديه على زاوية الطاولة، ثم انحنى عليه وقال:

ـ لم تأتِ الصحافيّة... ربّما منعوها من الاختلاط بالناس... ألم أقل لك إنّ العيون هذه الأيّام مفتوحة!

انتبه أبو الريح إليه. لم يعلّق بشيء، أخذ شهيقًا عميقًا، طلب الفاتورة، ثم سكب ما تبقّى من عرق في قعر كأسه الفارغة، كرعها من دون أن يكسر تركيزها العالي، دفع الحساب، ونزل الدرج بعدما شعر أنّ المكان أخذ يضيق عليه. مرّ من أمام الفندق. لفّ نحو اليسار باتّجاه الشوارع الخلفيّة من بستان كلّ آب. مرّ بالنوادي الليليّة، وصلته موسيقاها الصاخبة ولمح الخوف في عيون السكارى وهم يستندون إلى

الجدران المعتمة بعدما أفقدهم الخمر توازنهم. لفحه عطر الراقصات وبائعات الهوى في الزوايا وهنّ يقهقهن ويرمين بأعقاب سجائرهنّ الرفيعة على قارعة الطريق.

مضى بصمت في الشارع الطويل الذي يفصل بستان كلّ آب إلى شطرين وينتهي بساحة باب الفرج. اتّجه يمينًا نحو الساعة الحجريّة العملاقة، رفع رأسه إلى عقاربها المتوقّفة منذ عقود خلت، فشعر بثقل الزمن تحت حجارتها الملساء. انعطف يمينًا باتّجاه المتحف، مرّ بعربة شواء تحلّق حول دخانها الأبيض ثلّة من الرجال الجائعين. اشتمّ رائحة الشواء. سال لعابه كقطّ جائع آخر الليل. من على زاوية المتحف أشار لسيّارة أجرة، وما إن جلس بجانب السائق وأغلق الباب، حتى سأله الأخير قبل أن يدلّه على وجهته:

ـ سكران؟...

في العتمة، لم ير أبو الريح من السائق إلّا وجهًا ملتحيًا. فتح فمه لينطق بكلمته الأولى، صرخ السائق في وجهه:

ـ انزل... قبّح الله وجهك... ذبحك حلال يا ملعون...

لم يعرف أبو الريح كيف نزل من السيّارة. هرول على الرصيف الآخر من الشارع، وظلّ يمشي إلى أن وصل قبالة فندق بارون. نظر إلى الشرفة المعتمة، ثم قرّر أن يواصل سيرًا على الأقدام.

مرّ في حارات كثيرة. العزيزيّة. محطّة بغداد. الشيخ طٰه. لم يبالِ بالسيّارات المسرعة، الرافعة أصوات مسجّلاتها الصادحة بأغان سوقيّة عن الحبّ والخيانة. وصل إلى الشارع الطويل الذي يفصل ما بين مقبرتين مسيحيّتين، أخذ شهيقًا عميقًا، عبّأ رئتيه بمزيج من رائحة الصنوبر والموت، ودندن أغنية حزينة عن الغياب. مرّت في باله صورة والده، كيف كان يمسك بيده ويقطع به الدروب الترابيّة الفاصلة بين كروم الزيتون. تذكّر إحدى الأغاني التي كان يغنّيها كلّما أخذه التعب، كان يرفع صوته وينسج موّالاً طويلاً ثم يلتفت إليه، وهو ابن السادسة أو السابعة، ويسأله عن رأيه بصوته. يخجل الصغير ويطأطئ رأسه، ثم يرمي حجرًا نحو الوادي العميق على طرف الكرم. رأى وجه أبيه لحظة فارق الحياة بعدما كابد المرض، لوّح له كما كان يفعل أيّام زمان عندما كان يختبئ بين أشجار الزيتون، مراقبًا ردّة فعل ابنه، وما إن يراه يدنو من حافّة البكاء حتى يطلّ عليه مبتسمًا، ملوّحًا بيده الواسعة.

أخذ أبو الرّيح الطريق الصاعدة نحو الشارع رقم عشرين، أهمّ شوارع الشيخ مقصود غربي، معقل من معاقل أنصار الزعيم، يتحوّل أيّام المناسبات الخاصّة بالتنظيم إلى ساحة للتظاهرات والمواجهات بين الأنصار ورجال الشرطة. لطالما طارده رجال الأمن في الأزقّة المتفرّعة من هذا الشارع. بحكم

عمله الطويل ضمن الحارة، يحفظ أبو الرّيح كلّ أزقتها ويعرف أغلب ساكنيها. الكثير منهم انضمّ على يديه إلى التنظيم، وبعضهم تبوّأ فيما بعد مراكز قياديّة. اليوم، تبدّل الوضع بعدما غاب عن الحارة عقدين من الزمن. الوجوه اختلفت والمظاهرات خفّت بعدما قُبض على الزعيم وزُجّ به في سجن وسط البحر. تقاعس أبو الرّيح عن التواصل مع رفاق الأمس مع أنّهم، ما إن سمعوا بخروجه من السجن، حتى قلّدوه وسامًا معدنيًّا يحمل صورة الزعيم، احتفظ به لفترة ثم أضاعه أثناء تنقّلاته الكثيرة من بيت إلى آخر، إلى أن استقرّ به المطاف في هذا البيت المتواضع المؤلّف من غرفة وحيدة تفضي إلى الزقاق الضيّق المتفرّع من الشارع عشرين.

سرير خشبي ضيّق مفكّك الأوصال، عليه فراش صوفي تحجّر مع مرور الزمن، تحيط به أغراض علّقها أبو الريح بالمسامير على الجدار المحاذي للباب. إبريق شاي ومطواة سوداء اللون لقلي البيض، رفّ خشبي متعفّن يحمل فنجاني قهوة، كأس شاي أصفر يحمل ماركة ليبتون، وبضع مرطبانات صغيرة للسكّر والشاي والقهوة.

دخل أبو الرّيح الغرفة. أغلق الباب وتلمّس طريقه في العتمة إلى سريره. ارتمى عليه كجثّة هامدة. سحب المخدّة ذات الرائحة النتنة، توسّدها قليلاً، ثم أبعدها بنزق. تقلّب

يمينًا ويسارًا. تذكّر أنّ الحذاء ما زال يضغط على قدميه المتورّمتين من المشي، فخلعه ورماه في وسط الغرفة. لم يدر بعدها ما حدث. فتح عينيه في اليوم التالي، لم ير شيئًا، كانت العتمة قد خيّمت مجدّدًا. انتبه إلى الوقت من ثقوب في الباب الحديدي الموصد. قام من سريره. مدّ يده إلى رقبته المتعرّقة، تلمّسها بعدما شعر بألم. ضغط على مفتاح الكهرباء، فشعّت الغرفة بضوء المصباح الأصفر المتدلّي من سقفها. ألقى نظرة على ساعة يده، كانت العاشرة إلّا ربع مساء.

لم يصدّق أنّه نام كلّ هذا الوقت. أخذ زجاجة مليئة بالماء مركونة خلف الباب، فغسل وجهه وبلّل شعره الملتصق ببعضه من عرقه المتصبّب طوال الليل. وقف أمام مرآة مكسورة الحوافّ ألصقها خلف الباب، رتّب شعره بأصابعه، ثم رفع ياقة قميصه المجعلكة. انتعل حذاءه، أطفأ المصباح وخرج من الغرفة تاركًا بابها مفتوحًا.

ليست المرّة الأولى التي يترك فيها أبو الرّيح الباب مفتوحًا. كلّ أهل الحارة يعرفون عاداته. حتى إنّ البعض يوصد له الباب ما إن يتأكّد أنّه غير موجود، مخافة دخول الجرذان والفئران التي تنشط مع حلول المساء، فتصير تتنقّل براحتها بين أكياس القمامة الموزّعة على طول الزقاق المعتم والبيوت. لم يكن أبو الرّيح ليبالي بها، إذ كان يردّ على من

يحذّره بعدم ترك بابه مفتوحًا: الغرفة ينقصها جرذان وفأر لتغدو كمهجع السجن.

في الطريق إلى مطعم العندليب، لم يفكّر بشيء، لا بهيلين ولا بكأس العرق، كان يصغي لأمعائه التي كانت تزقزق كرفّ من العصافير الجائعة. لم يصدّق أنّه وصل إلى مطعم العندليب، صعد الدرج الضيّق، توجّه إلى طاولته، أبعد الكرسي وجلس، بعدما ألقى نظرة سريعة على شرفة هيلين. لم يتغيّر شيء. ما زالت الغرفة معتمة.

ـ منذ ربع ساعة، كانت جالسة في الشرفة... ربّما نامت.

قال شوكت هذا وابتسم، فعضّ أبو الرّيح على شفته السفلى نادبًا حظّه. لو أنّه جاء قبل قليل... لكنّه أبى أن يُظهر أسفه، فتظاهر بأنّ الأمر بالنسبة إليه سيّان. إلّا أنّ شوكت كرّر جملته للمرّة الثانية، وزاد عليها قائلاً:

ـ دخلت وخرجت عدّة مرّات... كانت تبحث عنك... نظرت للأعلى مرّات عدّة...

ازداد أبو الرّيح توتّرًا، أخرج علبة دخّانه وأشعل سيجارته بأصابع مرتجفة، ثم قال لشوكت:

ـ منذ البارحة لم أتناول شيئًا... معدتي خاوية... لا

أسمع شيئًا . . . هات أيّ شيء يؤكل.

هذه هي المرّة الأولى التي يطلب فيها منه شيئًا يؤكل. اعتاد شوكت على طلباته لا تتجاوز صحن سلطة وربعيّة عرق وبعض المخلّلات الحارّة. سأله عمّا يريد تناوله، فما كان من أبو الرّيح إلّا أن سارع بالقول:

ـ أيّ شيء. . . المهمّ ألّا تتجاوز الفاتورة الخمسمائة ليرة. . .

ضحك شوكت، وراح يسجّل في دفتره الصغير رافعًا صوته.

ـ ربعيّة عرق. . صحن سلطة خشنة. . . نصف فروج. . . مخلّل حارّ. . . صحن حمّص. . . بطاطا. . .

رفع أبو الرّيح يده مؤشّرًا له بأن يكتفي، ثم قال ممازحًا:

ـ كلّ هذا بخمسمائة ليرة. . . يا بلاش. .

كان يدرك ألّا مشكلة لدى شوكت بالنسبة لفاتورة الحساب، فكثيرًا ما جلس إلى الطاولة وليس في جيبه ليرة واحدة. في نهاية الشهر، عندما يقبض راتبه من أخيه الصغير، يدفع ما تراكم عليه.

رصف شوكت طاولة أبو الرّيح، فبدت عامرة على غير عادتها. أكل أبو الرّيح بنهم وراح يستعيد توازنه الذي خلّه

الجوع. إلّا أنّ كؤوس العرق التي كرعها راحت تأخذه في اتّجاه آخر. ظلّ يشرب ويأكل قرابة الساعة وعينه على الشرفة، كان متيقّنًا من أنّها ستطلّ بين لحظة وأخرى.

استند إلى ظهر كرسيّه وأخذ يفكّر بها. أعاد رسم ملامحها. أخذته الجرأة ليلج تفاصيل جسدها فتخيّل نهديها ككرتي ثلج باردتين ينزّان من حلمتيهما حليبًا أشبه بالعرق يتقطّر على حوافي الكأس التي أمامه. وصل سرتها الغائرة في منتصف خصرها النحيل وقد انتصب فيها عود رفيع من البخور كانت أمّه تشعله في زوايا السور الحجري في القرية أيّام الجمعة كي تطرد الشياطين والجانّ. أشعل عود البخور. أطلق من فمه دوائر من دخان لفافة التبغ بين شفتيه، ثم هبط بهدوء وحذر كما لو كانوا يقتادونه أيّام السجن إلى القبو المظلم. تلمّس الطريق الدبقة، معصوب العينين، بأطراف أصابع قدميه الحافيتين. كانت أصابع مخيّلته تتلمّس الطريق الهابطة بين فخذي هيلين.

لم تتوقّع هيلين أن ينقاد أبو الرّيح لطلبها بهذه السهولة. سردت له قصّة بحثها عن والدها المجهول وسألته عن إسماعيل آغا، فحكّ جبينه العريض، ثم قلّب الاسم في دماغه. تذكّر الرجل سليل الإقطاع، صديق السجن، بالتأكيد سيعرف إسماعيل آغا. أبناء الأصول يعرفون بعضهم جيّدًا، وهو لم يبارح عفرين منذ أن خرج من السجن. هذه أيضًا مناسبة للقائه والسؤال عن أحواله.

كادت هيلين تطير من الفرح عندما قال لها أبو الرّيح: «غدًا صباحًا أصحبك إلى عفرين». وراح يحكي لها عن علاقاته الواسعة وعن صديقه سليل الإقطاع الذي لولاه لكان زعران السجن أكلوه بلا ملح. اختلق بطولات وهميّة ولم تبالِ هيلين إذ ظلّت تسأله عن تفاصيل الرحلة، ساعة الانطلاق،

مخطّط البحث. . . هوّن أبو الرّيح الأمر عليها:

ـ غدًا صباحًا نستأجر سيّارة تاكسي. . . أقلّ من ساعة ونكون بمدينة عفرين. . . صديقي سليل الإقطاع يسكن قريبًا من ساحة السراي. . .

عرضت عليه هيلين مالاً، فتحت حقيبة يدها وأخرجت رزمة من الدولارات. تأفّف أبو الرّيح وأبدى انزعاجه من تصرّفها. تحاشى النظر إليها إلى أن أعادت الرزمة إلى الحقيبة. غيّر دفّة الحديث فحدّثها عن المظاهرات التي عمّت بعض المناطق السوريّة. أبدت هيلين اهتمامها بالموضوع، سألته عن مطالب المتظاهرين، تلفّت أبو الرّيح حوله، برق في عينيه شعاع خوف، خفض صوته:

ـ يريدون قلب النظام. . . حاولوا في الثمانينيّات، واليوم يحاولون مرّة أخرى. . .

أخبرها ما يجري في درعا وحمص واللاذقيّة وحماة وريف حلب، وروى لها عن قتلى المظاهرات وعن المعتقلين. لم تصدّق هيلين بداية الأمر. نظرت من حولها، كان المطعم في أوج صخبه والحياة طبيعيّة. تدارك أبو الرّيح حيرتها:

ـ حلب مدينة صناعيّة وتجاريّة دفعت ثمنًا باهظًا في الثمانينيّات. الثورة بالنسبة إلى هؤلاء عمليّة تجاريّة، والتاجر يتعلّم من خساراته السابقة. . .

لم تفهم هيلين كلّ ما قال. سألته عن رأيه بالمظاهرات. تلكّأ في البداية وراح يفتّش بين الصحون عن شيء ما. بدت هيلين مصرّة على سماع رأيه، فكرّرت سؤالها. غبّ أبو الرّيح كأسه دفعة واحدة، ثم انشغل بتحضير كأس أخرى. رمت هيلين بعفويّتها حجرًا آخر على صفحة مائه الراكدة، بعدما شعرت أنّه غير راغب في خوض هذا الموضوع.

ـ حدّثني العجوز كارو عن العلاقة القديمة بينكما. هو من دلّني عليك.. إنّه معجب بشخصك كثيرًا.

ظلّ أبو الرّيح يقرض أظافر الصمت كأنّه لم يسمع كلماتها. اكتفى بابتسامة صفراء انسابت من بين دخان سيجارته. خافت هيلين أن يغيّر رأيه باصطحابها إلى عفرين حين لاحظت أنّه غير راغب في الحديث. عادت إلى قصّة بحثها عن والدها المجهول وأخبرته كيف حذّرتها صديقتها ليزا من المجيء إلى حلب. عاد أبو الرّيح إليها، وراح يصغي بتركيز إلى كلامها وقد راق له أن توغل بعيدًا في تفاصيل حياتها. استرخى في قعدته بعد أن شعر أنّه كمن يشاهد فيلمًا سينمائيًّا وهو يستمع إلى هيلين التي لم تجد حرجًا في سرد علاقتها بليزا، فكان قادرًا على تحويل كلّ كلمة تقولها إلى صورةفي خياله الذي اتّسع ونما في سنوات عزلة السجن الطويلة.

عادت هيلين إلى الفندق، وجدت العجوز كارو لوحده.

ألقت عليه تحيّة المساء وقالت فرحة:

ـ غدًا صباحًا سأذهب إلى عفرين!

فغر العجوز فمه غير مصدّق، خرج من خلف طاولته، خلع نظّارته وأشار لها أن تجلس إلى إحدى طاولات البهو.

ـ وافق أبو الرّيح على مرافقتك إذًا.

هزّت هيلين رأسها وهي تعضّ على ابتسامة ماكرة خرجت من بين شفتيها. سردت له الودّ الذي قابل به أبو الريح طلبها. أخبرته كيف تعلّق بها وأمسك يدها بين يديه المرتجفتين. لا تدري إن كانت تبادله المشاعر. يبدو عاطفيًّا فوق اللزوم، عكس ما تدلّ عليه هيئته وملامحه القاسية.

لم يقاطعها العجوز. أصغى بسمعه الثقيل. سألته هيلين عن رأيه، بدا غير قادر على الإجابة. زمّ شفتيه، تململ في جلسته وقال ببرود:

ـ في الشرق يولد الرجال بلا أمّهات، فيقضون عمرهم في البحث عن حضن دافئ.

لم تفهم هيلين. عبرت عينيها موجة نعاس قويّة. بدأت تستسلم للنوم، فصعدت الدرج المحاذي لطاولة العجوز، توقّفت برهة وقالت:

ـ أيقظني قبل التاسعة.

قبل الموعد بدقائق، كان أبو الرّيح ينفث دخان سيجارته خلف مقود سيّارة تاكسي عموميّة، بانتظار هيلين التي كانت في كامل أناقتها تجادل العجوز كارو الذي أرادها أن تؤجّل رحلتها. «اليوم الجمعة، وربّما تكون الطريق الواصلة إلى عفرين محفوفة بالمخاطر، إذ يخرج المتظاهرون بعد صلاة الجمعة في مظاهرات، وفي أغلب القرى والبلدات، تُقطع الطرق بالحجارة وتُضرم النار في إطارات السيّارات، إلى أن تبدأ لعبة الكرّ والفرّ بين المتظاهرين وبين رجال الأمن والمخابرات».

حذّرها العجوز من أنّ رجال الأمن يدقّقون في هويّات المسافرين. «أنت بريطانيّة، قد يشكّون أنّك صحافيّة جاءت لمراقبة الأوضاع، وربّما ألقوا القبض عليكِ». نصحها بعدم

السفر، لم تبالِ بكلماته. كانت قد اتّخذت قرارها وانتهى الأمر. وجود أبو الرّيح إلى جانبها يطمئنها، يشعرها بالأمان. هي مستعدّة للذهاب معه إلى آخر الدنيا. حملت حقيبتها ولوّحت لكارو بيدها مودّعة، فرفع العجوز يديه مفوّضًا أمرها إلى الله.

أمام باب الفندق، لمحت أبو الرّيح مشغولاً بمسح بلّور السيّارة الصفراء. نزلت الدرج بلمح البصر، سلّمت عليه وركبت بجانبه في المقعد الأمامي.

انطلق أبو الرّيح في الشوارع الخاوية كأنّها تعيش تحت حظر التجوال. لم تتوقّع هيلين أن ترى المدينة بهذا الشكل، لا سيّارات تمرّ ولا مشاة على الأرصفة، كأنّها مدينة أشباح. انتابها شيء من الخوف. سألت أبو الرّيح، ما الذي أوقف الحياة فجأة في مسنّنات هذه المدينة التي لا تنام أبدًا. انعطف أبو الرّيح يسارًا، حيّ السريان والأشرفيّة، وصولاً إلى دوار الليرمون. تفاجأ بوجود حاجز كبير لرجال الأمن، توقّف بعد أن أشاروا له أن يفعل. تذكّرت هيلين تحذيرات العجوز وهالها منظر الرجال المدجّجين بالسلاح، تمالكت أعصابها بعدما أحسّت بخطورة الموقف. طلبوا من أبو الرّيح بطاقته الشخصيّة، وسألوه عن الوجهة التي يقصدها، فيما راح عناصر آخرون يتفحّصون وجه هيلين الأبيض بإعجاب. سأله أحدهم بصوت

أجشّ: أنت كردي؟ هزّ أبو الرّيح رأسه بالإيجاب، فأعاد له العنصر بطاقته الشخصيّة وسمح له بالمرور. لم تفهم هيلين ما حدث، إلّا أنّ كابوسًا ثقيلاً زال عن صدرها. رفع أبو الرّيح صوت مسجّلة السيّارة وقال لها بعدما تنفّس الصعداء: هذه أغنية عن العشق.. أغنية زينو.. أي لا ڤيو يعني.

ضحكت هيلين وراحت تراقب السهول الممتدّة أمامها. كان الصيف يكنس ما تبقّى من عشب أخضر على حوافي الطريق الطويل، وكانت أعمدة دخان أسود ترتفع في البعيد، من بين البلدات والقرى المحاذية للطريق. عندما انتبهت هيلين إلى أعمدة الدخان، رفعت عن عينيها نظّارتها الزرقاء، خفضت صوت المسجّلة وهي تلتفت يمينًا ويسارًا، إلى أن رأت بعض الصبية على جانبيْ الطريق يهمّون بإشعال إطارات سيّارات.

زاد أبو الرّيح من سرعة محرّك السيّارة ولم ينبس بحرف، رغم أنّه لاحظ التساؤلات التي ارتسمت على وجه هيلين، ولم ترغب هي في أن تشغله عن قيادة السيّارة التي تسارعت بشكل جنوني. مرّت دقائق، وحين بدت أعمدة الدخان متناهية الصغر وراء السهل المنبسط من خلفهم، خفّف أبو الرّيح من سرعته وأشعل سيجارة. التفت إليها وقد زال عن وجهه القلق، وشرح لها ما رأته. «يقطعون الطرق ليمنعوا وصول سيّارات الأمن إليهم. مسلسل أسبوعي اعتدنا عليه. لا داعي للقلق... في

عفرين، الأمور تجري على ما يرام». طمأنها. «الحكومة سمحت لهم بفتح مدارس اللغة الكرديّة، وسلّمت التنظيم شؤون إدارة مناطقهم. باتت صور الزعيم في كلّ مكان وصار لديهم قوّات تنتشر في كافّة القرى، تعتقل وتحقّق مع من تشاء. لقد أصبحوا دولة لا ينقصها سوى خروج الزعيم من السجن».

مضى أبو الرّيح في مدح إنجازات التنظيم. شتم المظاهرات التي تخرج من المساجد والجوامع في القرى المحيطة بعفرين. ضحك ثم رفع صوته ليتغلّب على هدير محرّك السيّارة. «ليس لديّ قناعة بثورة يقودها مسلمون. ثورة تخرج من الجوامع لن تفهم الديموقراطيّة أبدًا. الحكومة بالنسبة لي أفضل من هؤلاء الهمج».

استغربت هيلين تحليله. ورغم أنّها لم تفهم كلمات كثيرة، شعرت أنّ ثمّة أمرًا خطأ في فهمها. منذ يومين قال لها إنّ الحكومة تمنعهم من التحدّث بلغتهم، وشتمها لأنّها تخلّصت من الزعيم بين ليلة وضحاها. حكومة مافيا، هكذا وصفها. كأنّ أمرًا ما قد تغيّر، أو ربّما أنّها لم تفهم كما يجب. بقيت تستمع إليه بلا انتباه، بينما كانت السيّارة تقطع بهما الطريق الفارغة إلّا من بعض السيّارات التي كانت تسبقهما بين الفينة والأخرى.

خفّف أبو الرّيح من سرعة السيّارة، وأشار إلى قرية على سفح الجبل، وإلى أخرى أبعد منها قليلاً. «تلك قرية قاطمة

والتي تليها كفرجنّة. انظري إلى هؤلاء»، قالها وأشار أمامه إلى حاجز كان يقطع الطريق عند مفرق قرية كفرجنّة. براميل ملوّنة بالأخضر والأصفر والأحمر، وأعلام تحمل الألوان نفسها ترفرف عاليًا. شباب وبنات، بعضهم بدا في مرحلة المراهقة، يحملون بنادق كلاشينكوف ويشدّون على صدورهم جعبًا مليئة بمخازن الرصاص.

توقّف أبو الرّيح في نهاية الحاجز وسلّم عليهم بحرارة. اقترب أحدهم رافعًا صوته، كأنّه تعرّف عليه، مدّ رأسه من نافذة السيّارة وعانقه، ثم سلّم على هيلين التي كانت تراقب بعينين مذهولتين. تحدّث أبو الرّيح إلى الرجل الذي كان يحمل بيده دفترًا وقلمًا، ظلّ يتحدّث معه لدقائق، ويشير بين الفينة والأخرى إلى هيلين. إلى أن ودّعهم، فرفع له الجميع أيديهم مودّعين.

ـ نحن الآن في منطقة عفرين. هؤلاء المقاتلون أكراد. بعضهم جاء من الجبال البعيدة. نحن الآن في أمان تامّ... هذه كردستان سوريا.

رفع أبو الرّيح مجدّدًا صوت مسجّلة السيّارة ليكمل مواويل أغنيته الطويلة عن الحبّ والعشق. تعلّقت هيلين بحقول الزيتون. على مدّ البصر. أينما التفتت، أرتال من أشجار الزيتون ترفع أغصانها الخضراء باتّجاه قبّة السماء، لا تعرف منبسطًا ولا تلًّا ولا واديًا. إنّها مملكة الزيتون.

حلّ المساء ضيفًا ثقيلاً. كادت هيلين تشعر بالإحباط بعدما تحوّل الرجل سليل الإقطاع إلى إبرة ضائعة في كومة قشّ. لم يترك أبو الرّيح بابًا إلّا طرقه، لكن لم يستدلّ على بيته أحد. البعض قال إنّه ترك عفرين وسكن إحدى القرى الحدوديّة، وآخرون قالوا إنّه بنى ڤيلّا بعيدة عن زحام المدينة ومشاكلها. لم يستسلم أبو الرّيح، جال المدينة جيئة وذهابًا عدّة مرّات، إلى أن قرّر أن يستريح في مكان ما، مطعم أو كافتيريا، يأكل شيئًا ويفكّر على مهل. وافقت هيلين وسألته إن كان بإمكانهما النزول في فندق. ضحك أبو الرّيح من سذاجة سؤالها وقال ممازحًا.

ـ هذه ليست لندن. . . يمكننا هنا أن نطرق أيّ باب ونطلب المبيت. لا توجد مشكلة. المهمّ سليل الإقطاع، أين اختفى؟

توقّف أبو الرّيح أمام مطعم قريب من ساحة السراي القديم، كان الزحام في أوجّه ذاك المساء، ضجيج السيّارات والدرّاجات الناريّة يمتزج مع أصوات الباعة بحيث بدا المكان وكأنّه قلب المدينة. بشر في كلّ مكان، تائهون يبحثون عن شيء ما...

نزلت هيلين من السيّارة، فحدّق فيها سائقو حافلات النقل بعيونهم الجائعة كقطط ريفيّة. شدّها أبو الرّيح من يدها بعدما لمح الفضول في عيون المارّة، تزاحم البعض حولهما، فأدخلها إلى مطعم صغير، مطعم عفرين المواجه للساحة، أجلسها في زاوية، ثم اقترب من الشوّاء، رجل في الخمسين من عمره، بزندين مفتولين وشاربين عريضين. رحّب به الرجل، طلب منه أبو الرّيح وجبتي شواء، ثم سأله عن صديقه سليل الإقطاع. توقّف الرجل عن ضمّ قطع اللحم الأحمر في السيخ الحديدي، نظر باتّجاه هيلين وعَصَر ذاكرته.

ـ تقصد رشيد ابن الآغا إسماعيل...

لم يصدّق أبو الريح ما قاله الشوّا. جلس إلى كرسي قريب من كور الشواء.

طيلة سنواته التي قضاها في السجن مع سليل الإقطاع، لم يسأله لا عن أصله ولا عن فصله. لم يهتمّ بالأمر. كرّر سؤاله:

ـ لا أدري. أنا أسأل عن رشيد، كان مسجونًا معي، والده كان آغا...

ضحك الرجل ذو الملامح القاسية، ثم رمى بحزمة من أسياخ اللحم فوق منقل الشواء. حرّك الهواء بصفيحة بلاستيكيّة فوق الجمر المستعر، فتصاعد الدخان الأبيض وفاحت رائحة اللحم المشوي. انتظر أبو الرّيح لينطق مجدّدًا، إلّا أنّه انشغل بفرم حبّة بندورة إلى قطع صغيرة بسكّين حادّة.

ـ أعتقد أنّه من أبحث عنه... أريد أن ألتقي به...

نظر الرجل إليه من فوق كتفه، نادى على شابّ صغير يعمل معه في المطعم كان مشغولاً بجلي الصحون، وطلب منه أن يقف مكانه، ثم قرّب كرسيًّا من كرسي أبو الرّيح، جلس قبالته وقال:

ـ ماذا تريد؟ قل لي حتى أعرف كيف أساعدك... المرحوم إسماعيل آغا كان يقرب زوجتي.

بقي أبو الرّيح للحظات رهين الصدفة التي قادته ليلتقي بهذا الرجل. هل يحكي له قصّة هيلين وبحثها عن إسماعيل آغا، أم يخفي الأمر متحجّجًا بشوقه لرؤية صديقه القديم رشيد سليل الإقطاع؟ تركه الرجل وألقى نظرة على منقل الشواء، همس في أذن الصبي شيئًا فسارع هذا الأخير إلى مسح طاولة هيلين، بينما راح هو يفرط سيخ اللحم.

ـ الطاولة صارت جاهزة، تفضّل... نتحدّث بعد أن تنتهيا من طعامكما...

حين انتهيا من الأكل، رمى أبو الرّيح بالمفاجأة على الطاولة. فرحت هيلين. طلبت على الفور الجلوس مع الشوّاء ذي الملامح القاسية الذي لم يرفع عينيه الحادّتين كسكّينه اللامعة عنها. طلب منها أبو الرّيح التريّث قليلاً. ألحّت. مضى النهار بطوله ولم تمسك برأس الخيط، وها هو يتدلّى الآن أمامها ويريدها أن تتريّث بعد! نادى أبو الرّيح على الشوّاء وطلب منه الجلوس معهما، فانفرجت أساريره وراح يدقّق النظر إلى هيلين، إلى أن وجّه كلامه لأبو الريح بالكرديّة.

ـ هل هذه زوجتك؟

خاف أبو الرّيح. بدا له الشوّاء ذئبًا مفترسًا على وشك الانقضاض على هيلين. تمالك نفسه واصطنع سعالاً ليمنح الموضوع وقارًا، ثم شرح له أنّ هيلين باحثة بريطانيّة في التاريخ تفتّش لغاية ما عن إسماعيل آغا. ببساطة، أقنع الرجل ذا الجثّة الضخمة الذي أبدى تعاونه الكامل. طلب منه أبو الريح أن يتحدّث بعربيّة واضحة كي تفهم هيلين التي أخرجت من حقيبتها دفترًا صغيرًا وقلمًا، فعجز الرجل عن إكمال حديثه بالعربيّة وعاد يتحدّث بالكرديّة وأبو الرّيح يشرح لها بالعربيّة حتى تفهم.

فهمت هيلين من حديث الشوّاء أنّ إسماعيل آغا قتل برصاصة قاتل مجهول، قبل عقدين أو أكثر. قيل إنّ رجلاً من قرية بعيدة قتله غدرًا بعدما شكّ أنّ زوجته وقعت في فخاخ غرامه. بداية الأمر، ذبح زوجته وبعد سنتين أو أكثر، نال من غريمه إسماعيل آغا. استفرد به في قرية نائية من قرى عفرين، فوجدوا جثّته بعد عدّة أيّام وكانت الذئاب والكلاب الضالّة قد نهشت جزءًا كبيرًا من جثّته.

أمّا ابنه رشيد، صديق أبو الرّيح، فوقع في حبّ فتاة كانت قد أنهت للتوّ دراستها الجامعيّة بعيد خروجه من السجن. رفضته الفتاة. سألت أوّلاً عن مؤهّلاته وثقافته وما إن عرفت أنّه كان سجينًا ولم يعرف بحياته مقاعد الدراسة، حتى صرفت النظر عنه رغم إلحاح أهلها لإقناعها أنّه سيوفّر لها وسائل العيش الرغيدة. أرسل لها المرسال تلو الآخر، وسّط وجهاء قريتها. من دون جدوى. ظلّ يفكّر بها. أصابته حمّى شديدة فقد إثرها صوابه وراحت تختلط عليه الأمور. عرضه أهله وأقرباؤه على الأطبّاء والمختصّين، فزادت حالته سوءًا. أخذوه حتى المشفى الأميركي في بيروت. قالوا لأخيه الأكبر: صدمة نفسيّة كبيرة قد لا يُشفى منها مدى الحياة، أنتم وحظّكم، وقد يصحو بعد سنوات. باع أهله أملاكًا كثيرة. بلا فائدة.

أنهى الشوّاء كلماته، ثم سأل أبو الرّيح إن كانت هيلين

ترغب في معلومات أخرى. حدّقت هيلين في عينيه الحادّتين وبدت عاجزة عن طرح أيّ سؤال. ابتسم الشوّاء وقال لها بعربيّة ركيكة.

ـ ما رأيك بصورة لإسماعيل آغا؟ لدينا هنا في عفرين مصوّر يحتفظ بأرشيف كبير لصور وجهاء المنطقة، لحظة...

نادى الصبيّ وأعطاه قطعة نقود. وما إن خرج الصبيّ، حتى أطفأ أنوار واجهة مطعمه، وأخذ يكوّم الجمر فوق بعضه في زاوية الموقد.

لم تصدّق هيلين أنّها سترى صورة إسماعيل آغا. جلست على نار. بدا أبو الرّيح متوتّرًا. نظر إلى الساعة المعلّقة بالقرب من كور الشواء، كانت قد تخطّت الثامنة. قام ومشى باتّجاه واجهة المطعم، كان الليل كئيبًا وهو يفرد جناحيه على المدينة. خفّ الزحام وأخذت المحلّات تقفل الواحد تلو الآخر.

دخل الصبي لاهثًا راكضًا وهو يحمل بيده صورة بحجم الكفّ رفعها عاليًا أمام وجه معلّمه الذي أشار له أن يريها لهيلين. قامت هيلين على الفور والتقطت الصورة من يده. راحت تحدّق في تفاصيلها. رجل في عقده الرابع، شعره مجعّد وذقنه حليقة، عيناه تشعّان بالثقة، يرتدي سترة تبدو من أصناف جوخ أيّام زمان الفاخر، ويتدلّى سلسال معدني من زرّ

معطفه إلى جيبه الصغير وتتصلّب ساعة جيب حتمًا...
وضعت هيلين الصورة بين أوراق دفترها وسألت أبو الرّيح.

ـ هل ندفع الحساب وثمن الصورة؟

حاول الرجل الضخم إقناعهما بالمبيت عنده. الطرق لم تعد آمنة. شكره أبو الرّيح على حرصه وكرم ضيافته، وقال مطمئنًا ومودّعًا:

ـ ما هي إلّا ساعة ونكون بحلب...

انطلقت السيّارة وراحت تبتلع الظلام الدامس على حافّتي الطريق. أغمضت هيلين عينيها، حامت حول فوهة النفق الحلزونيّ المظلم وغابت عن الوعي.

ساحة الملح

فتحت هيلين عينيها على صوت منبّه الساعة وهو يطرق بمطرقته الصغيرة على جانبي نصفي الكرتين المعلّقتين في أعلاها. مدّت يدها وسحبت مغلاقه. ما زال الصوت يرنّ في صدغيها، الأفضل أن تجمد تمامًا بانتظار انسحاب أسلاك الرنين المعدني القاطعة التي تروح وتجيء داخل طبلتي أذنيها وتمنعها من سماع نفسها.

أزاحت عن جسدها الشرشف الأزرق وتمطّت ممسكة بالتاج الحديدي الذي يكلّل أعلى السرير، ثم رفعت جسدها قليلاً لتتّكئ على مرفقيها، مخفية رأسها بين كتفيها العاريين. شعرت براحة خفيفة بعد أن طقطقت فقرات رقبتها وسرت فيها برودة خفيفة سرّبها إليها حديد السرير.

وقعت عينها على جلباب أسود معلّق على المشجب النحاسي، فتذكّرت وجه منار الأسمر عندما خرجت من غرفة القياس، في محلّ الألبسة، ودارت على نفسها بجسدها الطويل وهي تفرد ذراعيها. ابتسمت هيلين وأبدت إعجابها بمقاس العباءة، ثم تحدّثت إلى البائع الذي لم يرفع عينيه عن فتحة قميصها. لوهلة، ظنّت أنّه يطلب منها فكّ أزرار قميصها، وتأكّد لها ذلك عندما لكزته منار في خاصرته ووبّخته بخبث، طالبة من هيلين تزرير قميصها والجلوس على الكرسي البعيد في زاوية المحلّ.

حاولت تذكّر وجه البائع، فلم تفلح إلّا باسترجاع شاربيه الكثّين ومنكبيه العريضين. تخيّلت كيف كان سينقضّ عليها ويمسك بيديه الكبيرتين طرفي قميصها فتتطاير أزراره في شتّى الاتّجاهات، قبل أن يقبض بإحكام على أحد نهديها وهو يعصره كليمونة يانعة. في الحقيقة، هو لم يُخفها بقدر ما شدّها العنفوان الطافح من عينيه اللامعتين وهما ترصدان تفاصيل صدرها، ثم نسته حين راحت تتفرّج على منار وهي تفرد، على مستطيل الطاولة وسط المحلّ، عدّة عباءات لا تختلف فيما بينها إلّا ببعض المطرّزات التي تزيّن ذيلها.

أكثر ما أعجب هيلين عباءة ذات أكمام متدلّية وواسعة تشبه فم سمكة مفتوحة تبحث عن فريستها. هذه على الأقلّ

قادرة على تمرير كمِّيّة كافية من الهواء عبر الكمّين الواسعين. بحثت عن منار كي تريها إيّاها، اتّجهت نحو غرفة القياس، للمرّة الرابعة ربّما، فرأتها تخرج مبتسمة، بعباءة تزيّنها فراشة كبيرة من اللؤلؤ مرسومة على الظهر. فغرت هيلين فاها إعجابًا وهي تتأمّلها بشراشيبها المتدلّية من طرفيها، وهزّت رأسها مؤكّدة لمنار أنّها وُفّقت تمامًا بإيجاد ضالّتها، فأومأت لها هذي الأخيرة أن تتبعها إلى غرفة القياس. خلعت منار العباءة ووقفت شبه عارية إلّا من صدريّة وسروال داخلي يصل لأطراف ركبتيها، ثم خلعتها على هيلين المشدودة إلى جسد منار الأسمر وإلى سروالها الأبيض المزركش بأزاهير ورديّة صفراء. أخذت منار ذقنها الصغيرة بين أصابعها ورفعتها نحو الأعلى بغنج، رتّبت ياقتها وزرّرت العباءة، ثم قادتها أمام المرآة الكبيرة في صدر المحلّ.

تفاجأت هيلين حين نظرت إلى نفسها وشعرت أنّها ازدادت طولاً. فاجأتها أيضًا البرودة الخفيفة التي لامست كتفيها بعدما لفحها الساتان الأسود بسطحه المصقول. أمسكت منار بخصر هيلين وأدارتها كمزهريّة سوداء يطلّ من أعلاها وجه صغير أبيض، مبدية إعجابها بما تراه. التفتت نحو البائع وأطلقت جملة لم تفهم منها هيلين سوى تشبيهها بأحد المأكولات الحلبيّة.

خلعت هيلين العباءة، فأخذتها منار وتوجّهت بها نحو البائع الذي رتّبها قبل أن يضعها في كيس من الورق المقوّى. دخلت منار في مساومة حادّة مع البائع، ثم قالت له قبل أن تطلب من هيلين ورقتين من فئة الألف ليرة.

ـ أنت تحلم، لن أعطيك أكثر من ألفي ليرة... كلّما جعت، ازداد الأكل طيبة، أليس كذلك؟

قالت منار ذلك، ثم فكّت الزرّ العلوي من عباءتها ليطلّ نهداها المنفوخان ككرتين من الصوف البنّي. بلع البائع ريقه وأخذ الورقتين النقديّتين مذعنًا، فشكرتاه وخرجتا من المحلّ.

استعادت هيلين ذلك وقامت من سريرها إلى الحمّام، أخذت دشًّا سريعًا، ثم خرجت وهي تنفض عن شعرها قطرات الماء العالقة. جلست على حافّة السرير وتناولت حقيبة يدها لتستلّ منها مرآة صغيرة خطّت عليها حاجبيها الرفيعين كإبرتين معكوفتين، التقطت أحمر الشفاه وصبغت شفتيها بلون غامق، فظهرت في رأسها ليزا وهي تضحك من هذا اللون الذي يذكّرها بغلاصم السمك الفاسد. هكذا كانت تصف شفتيها قبل أن تقترب منها هامسة بصوتها الهادئ: دعيني أتذوّق طعم السمك الفاسد...

غابت ليزا فحضرت منار ذات الوجه الأسمر والنهدين العريضين، بإلحاحها المتواصل على دعوتها لقضاء يوم في

دارها الواقعة في إحدى حواري حلب. كانت هيلين قد التقتها ذات مساء، في المقهى الواقع قبالة القلعة. وقفت هيلين تبحث عن طاولة لها، إذ كان المقهى مزدحمًا يعجّ بزبائن يلغطون بمختلف اللغات واللهجات. التقت أعينهما. امرأة جالسة لوحدها تنفث في الهواء دخان نرجيلتها، مازحت هيلين بالإنكليزيّة ودعتها للجلوس.

ـ لن تجدي أفضل منّي لتجلسي معه.

جلست هيلين وكأنّ سحرًا غريبًا شدّها إلى تلك المرأة الثلاثينيّة ذات الوجه الأسمر اللامع المحاط بملاءة سوداء مطرّزة الحوافّ، وكحل عينيها الواسعتين كطبقتين من البورسلان المصقول. شكرتها بعدما عبرتها نسمة خوف وهي واقفة واجمة تتفحّص وجهًا ينضح دهاء وذكاء. تذكّرت حديث ليزا عن صديقتها الأفغانيّة جيهان، إلّا أنّ منار لاحظت ارتباكها فقالت مطمئنة:

ـ المكان هنا جميل، لكنّ الزحام مزعج والضجيج كما ترين يكاد لا يصدّق... أنا منار، من حلب... هل أنت بريطانيّة؟

هزّت هيلين رأسها بالإيجاب، وانتبهت إلى صفّ الخواتم في أصابعها الطويلة القابضة بمهارة على مبسم النرجيلة.

ـ أنت تتحدّثين الإنكليزيّة بطلاقة...

لفّت منار الخرطوم حول عنق النرجيلة، متحاشية ملامسة جمرها المستعرّ فوق قمّة رأسها العاري، قبل أن تردّ عليها:

ـ درست الأدب الإنكليزي في الجامعة ثلاث سنوات، ولم أكمل بسبب ظروف خاصّة.

عضّت هيلين على شفتها السفلى متأسّفة. تدخّل النادل وسألها بالعربيّة عن طلبها. كوب من الشاي الأخضر قالت، فأخرجت منار من حقيبة يدها مبلغًا وأصرّت أن تدفع عنها الحساب. قبلت هيلين مرغمة ومنذ ذلك اليوم، تتالت لقاءاتهما في المكان نفسه الذي تفوح منه رائحة النراجيل الممزوجة برطوبة حجارة القلعة التي تتوسّط حلب.

تسبق هيلين منار إلى القلعة. تأتي قبل أن يعمّ الصخب والزحام. تختار طاولة مجاورة للطريق الذي يفصل بين المقهى والقلعة، فتجلس وتتأمّل البوّابات المؤدّية عبر الدرج العريض إلى باب القلعة الكبير. وفي كلّ مرّة، تعدّ الأقواس العالية التي تحمل على أكتافها الطريق الصاعدة، وينتابها شعور غامض بأنّ ثمّة من سرق أحد تلك الأقواس. تعيد من جوف التاريخ لأسوار القلعة العالية، فوق التلّة الدائريّة، حرّاسها المدجّجين بالسيوف والرماح يتمشّون على حافّة السور، غير آبهين بدوار الارتفاع. تخال أنّها تسمعهم وهم يصرخون بكلمات مبهمة ويدلقون في جوفهم محتوى أكواب فخّاريّة.

إنّهم يشربون النبيذ، قالت هيلين لنفسها وأخذت رشفة من شايها الأخضر، بينما زحف الزحام إلى ما حولها من طاولات في غفلة عنها. نظرت إلى ساعتها، لقد جاوزت السادسة. التفتت جهة اليمين حيث السرايا القديم وحمّام يلبغا والقصر العدلي، تبحث عن منار التي تسكن في مكان ما خلف القلعة...

وضعت هيلين المرآة جانبًا ونفضت عنها تخيّلاتها. لملمت أغراض حقيبتها التي تبعثرت فوق السرير واكتفت بمسحات خفيفة من فرشاة عريضة على وجنتيها. وضعت الحقيبة جانبًا، ثم التقطت العباءة المعلّقة بالمشجب النحاسي، والتفتت إلى المرآة العريضة المثبّتة بإطار خشبي إلى الجدار، دقّقت في أحمر شفاهها وتأكّدت من الكحل الصارخ على جفنيها الزهريين. لم تعر انتباهًا إلى ثيابها الداخليّة إذ كانت قد قرّرت منذ المساء أنّها سترتدي العباءة فوق ثيابها الداخليّة. هكذا علّمتها منار في غرفة القياس، العباءة تُلبس فوق الثياب الداخليّة. لم تتردّد.

دسّت يديها في جوف العباءة وشعرت بقشعريرة عندما لامسها الساتان الذي امتصّ كلّ برودة الحائط. انتبهت إلى القبّعة المتدلّية من ياقة العباءة عندما مالت على خصرها قليلاً. لم تكن قد لحظتها عند البائع ولم تنبّهها إليها منار. أمسكتها

بكلتا يديها وأخفت فيها رأسها، وأخذتها الدهشة حين وقفت أمام شخصها الجديد. لم تصدّق أنّها هي من ينعكس طيفها في المرآة. حرّكت يديها، فاهتزّت الشراشيب المتدلّية على طرفي الكمّين. خطت خطوة نحو اليمين وأخرى لليسار وعيناها لا تبرحان المرآة. نظرت إلى الساعة المعدنيّة القديمة فوق الطربيزة الملاصقة للسرير، كانت تدنو من الحادية عشرة. نصف ساعة ويحين موعدها مع منار في منطقة ما خلف القلعة، تسمّى ساحة الملح. كانت منار قد كتبت لها العنوان بالتفصيل على قصاصة ورقيّة، وقالت لها: لن تضيعي، كلّ سائقي التاكسي يعرفون الساحة... ستجدينني هناك في انتظارك...

فتحت هيلين باب الغرفة وخرجت بعدما أدركها الوقت، مرّت بصالة الاستقبال ووضعت مفتاحها على طاولة كارو الذي تفاجأ بها، فوقف للحظات واجمًا يحدّق بها. ابتسمت هيلين قبل أن تخلع عن رأسها القبّعة المثلّثة الشكل، استندت بساعديها إلى طاولته وهمست ممازحة:

ـ أنا هيلين... لا تخبر أحدًا...

ـ لم أعرفكِ... من النادر أن تحلّ عندنا سائحة سعوديّة... ما الذي دهاك لتتنكّري هكذا وإلى أين تذهبين؟

ضحكت وهي تفتّش في حقيبتها عن نظّارتها الشمسيّة، ثم ردّت بعدما وجدتها:

ـ إلى ساحة الملح. . .

قطّب كارو حاجبيه الكثّين وقرّب المسافة الفاصلة ما بين عينيه: ثم يُعيد نظّارته إلى قبالة عينيه مبديًا استغرابه.

ـ ساحة الملح. . . أين تقع؟

ـ أين تقع؟ إذا كنت أنت لا تعرفها، تريدني أنا التي لم تبتعد عن بريطانيا شبرًا واحدًا، أن أدلّك عليها؟ باي. . .

أعادت هيلين قبّعتها إلى رأسها، ثم وضعت نظّارتها الشمسيّة الكبيرة ورفعت يدها ملوّحة. علا صوت كارو ولحق بها:

ـ أنا ابن أرمينيا. . . أعرفها شبرًا شبرًا. . . انتبهي لنفسك. . .

لم تلتفت إليه. دلفت من الباب العريض نحو شارع بارون، وبدت غير مكترثة بجملته، فهي صارت تحفظ عن ظهر قلب عباراته حول مجازر الأرمن وهروبه مع عائلة الجيران إلى سوريا، بعدما قضا أبواه نحبهما على مرأى من عينيه الصغيرتين حين لم يكُ بعدُ يتجاوز السابعة من عمره. الصورة المروّعة للسواطير الباترة وهي تجزّ الرقاب ما زالت محفورة كندبة عميقة في ذاكرته. من يومها، وهو يعاني من نوبات أرق. أحيانًا، يصل الليل بالنهار دون أن يرفّ له جفن، وكثيرًا ما

يقضي الليل جالسًا على كرسيّه الصغير محاولاً إعادة صياغة المشهد. فهو تارة يرى أمّه وهي ترمي له بآخر قبلة قبل أن ينسلّ من وريد عنقها الأبيض خيط أحمر، وتارة وجه أبيه النحيل وهو يشيح بوجهه نحو جدار حجري نبتت بين أخاديده أشنيات صفراء، قبل أن يسقط على الأرض كدلو سقط في بئر. أمّا شقيقه الوحيد الذي يصغره في السنّ، فقد هربت به امرأة عجوز نحو جهة ما زال يجهلها إلى اليوم، وما زال هو، منذ ذلك الحين، دائم البحث عنه. يسرد تفاصيل قصّته ويسأل القادمين والذاهبين، لعلّ أحدهم يسقي بذرة تفاؤله التي لم تتخشّب، رغم مرور عقود طويلة.

عند ناصية شارع بارون، وقفت هيلين بانتظار سيّارة أجرة. تفاجأت بأحد عمّال التنظيفات يحمل مكنسته ذات الذراع الطويلة ويطلب منها تغيير مكانها ليتسنّى له قشط أعقاب السجائر وعلب الكولا الفارغة قرب حافّة الرصيف. تقدّمت قليلاً فخرجت من الظلّ وسرعان ما شعرت أنّ ساتان العباءة الأسود قد بدأ يتحوّل إلى صفيح معدني بعد أن امتصّ حرارة الشمس الحادّة ذاك الصباح وراح يلسع جسدها العاري. تمنّت لو أنّها ارتدت بنطالها وقميصها تحت العباءة التي التصقت بجسدها بعدما أخذ العرق ينزّ من مساماتها. مدّت يدها إلى خصرها بعدما أخذتها حكّة خفيفة، أبعدت عن سرّتها الساتان فالتصق بظهرها، فاجتاحتها رغبة عارمة بأن ترمي عن جسدها العباءة وتطلق لأظافرها الطويلة حرِّيّة الخربشة فوق جسدها

الذي أخذ يستوي كعرنوس من الذرة في قِدْر معدنيّ تراكم حوله الهباب الأسود.

أشارت إلى سيّارة أجرة تقترب منها بالتوقّف، لم تصدّق أنّها أخيرًا حظيت بسيّارة تقلّها إلى وجهتها، ركبت السيّارة وتحدّثت إلى السائق بالعربيّة.

ـ ساحة الملح. . .

خطف السائق الشابّ من المرآة نظرة إلى وجهها المغطّى بنظارتها السوداء وقال لها مبتسمًا:

ـ ساحة الملح. . .

ابتسمت هيلين بعد أن فهمت سرّ ابتسامته، فأعادت الجملة من ورائه وهي تحاول أن تنطق حرف الحاء بشكل صحيح. سألها وهو ينعطف بسيّارته جهة اليمين، نحو الشارع الممتدّ من مخفر العزيزيّة إلى المنشيّة القديمة:

ـ أنت روسيّة. . .

خلعت هيلين عن عينيها النظّارة، فأدرك السائق أنّها لم تفهم سؤاله. سألها مجدّدًا بعربيّة فصيحة.

ـ هل أنت من روسيا؟ موسكو. . . موسكو. . .

كرّر كلمة موسكو ففهمت هيلين قصده وهزّت رأسها نافية، ثم قالت بكلمات عربيّة واضحة:

ـ أنا. . . من بريطانيا. . .

وقف السائق على الإشارة الضوئيّة المؤدّية نحو ساحة باب الفرج. التفت إليها يدقّق في يديها:

ـ لا أجد خواتم في يديك. . . أنت عزباء. . .

علا من حوله صوت زمامير السيّارات، فقطع جملته وانطلق بالسيّارة. أبدت هيلين ارتياحها عندما فهمت مقصده، أعادت نظارتها العريضة إلى وجهها، إلّا أنّ السائق قطع ابتسامة كادت أن ترتسم على شفتيها، وكرّر سؤاله:

ـ أنت عزباء؟

قالها وانحرف نحو شارع طلعة البنوك المؤدّي إلى ساحة السبع بحرات. ردّت هيلين بتثاقل:

ـ عزباء. . . أنا. . .

وما إن تأكّد أنّها عزباء، حتى خفّف من سرعة السيّارة والتفت إليها بعدما تأكّد من خلو الطريق، ورماها بسؤال:

ـ أنت مسلمة؟

دارت هيلين حول السؤال وتردّدت في الإجابة، فكرّر السائق سؤاله ظنًّا منه أنّها لم تفهمه. حزمت هيلين أمرها وردّت عليه باقتضاب: لا، أنا بريطانيّة، ثم تظاهرت بالانشغال بمراقبة الشارع. ارتسمت إشارة استفهام كبيرة على

وجه السائق الشابّ الذي حار في أمر عباءتها، فترك مقود السيّارة وحرّك يديه مبديًا تعجّبه:

ـ لمَ ترتدين العباءة إذًا؟ أنت مسيحيّة ولست مسلمة...

لم تشأ هيلين أن تقطع على نفسها متعة التفرّج على سور القلعة العالي، فتجاهلت فضول تساؤلاته وانشغلت باستحضار الحرّاس الوهميين وهم يقفزون من حفرة عميقة في مخيّلتها، ثم يتسلّقون جدار القلعة الأملس ليأخذوا أماكنهم داخل مراصدهم الحجريّة، بعيدًا عن أعين الغزاة.

مسح السائق وجهه بقطعة قماش مبلّلة معلّقة أعلى نافذته، بعدما تيقّن أنّ زبونته لا تعيره أذنًا. أبطأ من سرعة السيّارة ليقف عند زاوية الشارع الممتدّ من مبنى السرايا حتى جامع التون خاتون.

ـ هذه ساحة الملح.

بحثت هيلين بعينيها الواجلتين عن منار، لمحتها بطولها الفارع واقفة على الطرف المقابل للجامع. لوّحت لها بيدها، فتحت باب السيّارة، وركضت إليها.

في الطريق إلى بيت منار، كانت هيلين تتفحّص الجدران والأبواب الموصدة المزيّنة الأطر بزخارف نباتيّة تنتهي بزنابق حمراء كبيرة. في الأعلى، فوق النجفات الحجريّة، أشكال

هندسيّة مربّعة توحي بالكاد بمجسّم الكعبة الشريفة قبلة المسلمين، فيما تمتدّ عبارات الترحيب بزائري البيت الحرام على طول الجدران الملساء العالية التي لا يحمل إلّا البعض منها نوافذ صغيرة، ويطلّ بعضها على شرفات خشبيّة مزخرفة.

انشغلت هيلين بالمكان بينما كانت منار تحثّها على الإسراع في مشيتها، وما إن انعطفت يسارًا حتى فاجأها قوس يعترض الزقاق يحمل على أكتافه غرفة تتدلّى على جانبي نافذتها الزرقاء ياسمينة بيضاء تلفظ في ضيق المكان أنفاسها العطرة. عبرتا من تحتها، وأحسّت هيلين ببرودة الظلّ وتمنّت لو تستريح قليلاً ها هنا، لكن منار توقّفت أمام باب خشبي مرصوف بمسامير معدنيّة كبيرة، أدخلت مفتاحًا في ثقب القفل وأدارته عدّة دورات، فانفتح الباب على فناء واسع. دخلت منار وتبعتها هيلين، حرّكت منار المزلاج المعدني القديم وأوصدت الباب بإحكام.

وقفت هيلين مشدوهة. فناء واسع مرصوف بحجارة مستطيلة ملساء وبركة ماء سداسيّة الشكل ذات زوايا مزخرفة تنتهي في أعلاها بحوافّ عريضة. في الطرف المقابل، درج حجري صُفّت على جانبيه أصص نباتات تبدو لشدّة خضرتها وكأنّ وابلاً غزيرًا من المطر قد غسلها للتوّ، يؤدّي إلى غرفتين تشرفان على أرض الدار. في الطرف الآخر، ليوان مربّع كبير

يتدلّى من منتصف قوسه العالي أصيص نبتة تدلّت أطرافها في الهواء وتفتّحت عن براعم صغيرة وأزاهير بحجم قطع نقديّة صفراء اللون. على طرف الليوان، غرفتان بأبواب عالية يشعّ منهما ضوء يشفّ عبر القطع الزجاجيّة الملوّنة ويسقط على الأرضيّة الملساء التي لم تكن تحتوي إلّا طاولة خشبيّة وبضعة كراسٍ من الخيزران.

أشارت لها منار بصعود درج الليوان، بعدما تركتها للحظات تمتعّ ناظريها بسحر المكان، وقبل أن تجلسا إلى الطاولة، خلعت منار عباءتها لتظهر في زيّ عصري، بلوزة حمراء بلا أكمام وبنطال ضيّق من الجينز الأزرق. طلبت من هيلين خلع عباءتها لترتاح في جلستها، ابتسمت هيلين واكتفت بنزع نظارتها العريضة عن عينيها. همست لها منار:

ـ لا يوجد هنا أحد سواي... أعيش لوحدي...

أعادت هيلين التأمّل في تفاصيل الدار وانتقلت بعينيها ما بين البحرة التي غطّت سطحها بتلات الورود، والدرج الذي ينوء تحت ثقل أصص النبات. رفعت رأسها نحو قوس الليوان العالي، ودون أن تنظر إلى منار، قالت:

ـ لم أكن أتصوّر أن يكون بيتك بهذه الروعة... هذا قصر وليس بيتًا!

ضحكت منار فارتدّ صدى ضحكتها من السقف العالي

للّيوان، ثم نهضت وفتحت يديها وهي تشير للمكان:

ـ تصوّري كلّ هذا الاتّساع، وأشعر بالضيق...

ـ المكان ضيّق؟ لم أفهم.

ـ سأحضر كأسين من عصير الحصرم البارد، ثم نتحدّث...

نزلت منار الدرج نحو فناء الدار، باتّجاه درج صغير يهبط إلى قبو ملاصق للّيوان. فكّرت هيلين بسرّ بيتها المترامي الأطراف ولم تصدّق للوهلة الأولى أنّه يمكن لشخص واحد أن يحتلّ كلّ هذا المكان. ثمّة لغز لا تريد منار البوح به. قالت مرّة إنّها متزوّجة، ومرّة أخرى إنّها مطلقة، ثم أبدت إعجابها بهيلين وغازلتها مرّات عدّة، وها هي الآن معها لوحدها في بيتها الخاوي.

سيكون هذا اللقاء حاسمًا... قالت ذلك في نفسها ثم وضعت ساقًا على ساق. حين لامس فخذاها بعضهما تذكّرت أنّها لا ترتدي سوى لباسها الداخلي. ماذا لو ألحّت منار عليها بخلع العباءة؟ شعرت هيلين بشيء من الخجل ولامت نفسها لأنّها لم ترتدِ بنطالها وقميصها، ثم لعنت ليزا التي جعلتها تطلق العنان لأهوائها. ماذا لو كانت منار لا تشبه ليزا في ميولها، ربّما غضبت ووضعت حدًّا لعلاقتهما. المهمّ أن تدلّها على عائلة بكري بيك، فكّرت وهي ترفع رأسها باتّجاه السقف

الخشبي الممتدّ على طول الليوان.

عادت منار وهي تحمل بيديها كأسين من عصير الحصرم، وقفت قبالتها قبل أن تضع الكوبين على الطاولة وقالت:

ـ هل أعجبك السقف...

خفضت هيلين رأسها ونظرت إلى كوبيْ العصير تتقطّر عليهما حبيبات منعشة صغيرة، أخذت كوبًا وراحت تتلذّذ ببرودته، ثم قالت بعد أن طردت وساوسها:

ـ بلا عباءة، أنتِ أجمل...

جلست منار. لا ترفع عينيها عن وجه هيلين الناعس:

ـ هيلين، أنت بارعة في رسم الكحل حول عينيك.

رمت بكلماتها كمن يرمي بحبّات نرد على طاولة قمار، ثم طلبت منها أن تشرب كوبها قبل أن يسخن. امتثلت هيلين، طبعت على حافّة الكوب أحمر شفاهها، غمرها شعور غامض بعدما فشلت في تحديد طعم العصير. أخذت رشفة ثانية وتركت العصير في فمها للحظات، قبل أن تدفعه إلى جوفها. خفضت منار رأسها إلى مستوى عينيْ هيلين المسبلتين على المذاق الغامض وهو يتمدّد في لعاب فمها، ثم ضحكت بصوت عال:

ـ ماذا؟... هل أعجبك مذاقه؟

فتحت هيلين عينيها ورشفت للمرّة الثالثة، عندئذ لفحتها حموضة الحصرم المقهور بالسكّر ودبّت في أوصالها الحيويّة، تدلّت الشراشيب من كمّي العباءة فبدت كفراشة بلّلها ندى الصباح:

ـ بحياتي لم أذق شرابًا كهذا... طعمه غريب!!

سحبت منار كوب العصير من أمام هيلين وبدّلته بكوبها. حملته بين أصابعها ودوّرته نصف دورة، ثم أطبقت شفتيها على شفاه هيلين المرسومة على حافّة الكوب وأخذت رشفة صغيرة من العصير. نظرت إلى هيلين وقالت: إخلعي عباءتك... لا يوجد أحد غيرنا...، ثم نهضت كلبوة مسترخية في فيء بارد ووقفت خلفها تضع يديها على كتفيها. سرت الحرارة من أصابعها عبر ساتان العباءة إلى كتفيْ هيلين العاريين. لمحت منار من الفتحة الصغيرة عند ياقة العباءة ملتقى نهدي هيلين، فقرّبت رأسها من أذنها وهمست:

ـ لنذهب إلى القبو... سألبسك شيئًا من الصندوق الأسود..

أمسكتها بيدها وقادتها إلى القبو. بدت هيلين كنائمة فقدت السيطرة على نفسها، فأغمضت عينيها بعدما وثقت بأصابع منار المشدودة على أصابعها. فكّرت بالصندوق الأسود. مرّ أمام عينيها شريط سريع لطائرة منكوبة توزّعت

أشلاؤها على رقعة خضراء بجانب بحيرة راكدة. تسمع المحقّقين وهم يطلبون من رجال الشرطة البحث عن الصندوق الأسود، يمرّ اثنان من رجال الإنقاذ وهما يحملان على نقّالة بيضاء جثّة متفحّمة، تشيح بوجهها إلى الجهة الأخرى حيث البحيرة الراكدة، جثث صغيرة لأطفال يطفون على سطح الماء كألعاب بلاستيكيّة عارية من الثياب...

ـ انتبهي إلى الدرج... تبدين ناعسة...

ـ أفكّر بالصندوق الأسود.

ضحكت منار وهي تدفع الباب الخشبي نحو الداخل، ففاحت رائحة قويّة من عطور نسائيّة أزكت أنف هيلين وهي تلج الغرفة المظلمة. وقفت منار بعدما خطت ثلاث خطوات وهي ما تزال ممسكة بيد هيلين، التفتت إليها. بالكاد ترى ملامحها. تسرّب شعاع ضوء خفيف بخجل من نافذة صغيرة قرب السقف. توجّست هيلين من ثباتها وكأنّها تنتظر شيئًا ما. رأت شفتيها اللامعتين تحت هسيس الضوء ترسمان ابتسامة ثم تهمسان:

ـ سننتظر قليلاً ريثما تنقشع العتمة... انظري، بدأت الصورة تتضح...

هزّت هيلين رأسها موافقة. لمحت في جوف الغرفة قبالتها صندوقًا كبيرًا أسود اللون ميّزته من زواياه المعدنيّة التي أخذت

تعكس الضوء. دقّقت في تفاصيل القبو بعدما توسّعت حدقتاها، مدّت إصبعها باتّجاه الصندوق وقالت:

ـ ها هو الصندوق الأسود...

لم تعر منار اهتمامًا لما قالته، شدّتها من يدها إلى مصطبة مرتفعة عن الأرض قليلاً مغطّاة بقماشة زرقاء. أجلستها على حافّة المصطبة ووقفت قبالتها. شعرت هيلين بنعومة غريبة غاصت فيها، ما إن لامس ردفاها الأريكة المغطّاة بالقماشة الزرقاء. مرّرت يدها على الوبر الأزرق الذي راح يموج بين أصابعها كحقل من السنابل الطريّة، قبل أن تفاجئها يدا منار وهما تفكّان الزرّ العلوي من عباءتها. أمسكت بيديها وحاولت البحث عن تفاصيل وجهها، فلم ترَ سوى ظلّ محاط بإطار هلامي من الضوء المتسرّب من النافذة التي صارت خلفها تمامًا.

ـ سألبسك شيئًا من رائحة الماضي... اشلحي العباءة...

تخطّت الزرّ تلو الآخر إلى أن وصلت إلى زرّ فوق ركبتيها، قرفصت وراحت تفكّ آخر زرّين فانزاح ساتان العباءة عن فخذيها وتكوّم على الطرفين كستارة ملساء أفرجت عن نافذة مشرقة. لم تنبس منار بحرف واكتفت بالذهول الذي اعتراها وهي تمتشق بعينيها جسدها. استقامت وتوجّهت نحو

الصندوق الأسود، أدارت فيه مفتاحًا سمعت هيلين صريره، ثم جاءها صوت المفاصل حادًّا ورفيعًا كسكّين.

بدأت العتمة تنقشع، فانشغلت هيلين بمعالم القبو التي راحت تتضح. جدران محفورة في الصخر، النافذة قبالتها فتحة شبه مستطيلة محفورة في أعلى السقف. رفعت رأسها نحو السقف الواطئ المتموّج بين النور والعتمة نتيجة الأزاميل غير المنتظمة التي حفرته، ثم مرّرت يدها تتحسّس الجدار الخشن وأخاديد الضربات القويّة على الصخر الصلد البارد. كان القبو فارغًا إلّا من الصندوق الأسود والأريكة الناعمة على المصطبة التي تجلس الآن عليها. تذكّرت فوهة النفق الحلزوني المعتم، فأغمضت وسندت ظهرها إلى الصخر البارد. انكشف صدرها بعدما فردت يديها، وبقيت العباءة معلّقة بساعديها.

دارت حول فوهة النفق الحلزوني بعدما أخذتها دوّامة ريح هوجاء، ازداد دورانها فشعرت بالغثيان. أتاها أنين بعيد يشبه أنين أمّها عندما كانت تكابد نوبات الربو المزمنة أيّام الشتاء الباردة. حاولت أن تتوقّف، بلا جدوى، تبدو كقمر انفلت خارج مداره، حتى جفناها التصقا ببعضهما ولم تعد قادرة على فتحهما.

سمعت اسمها، هناك من يناديها، إلّا أنّ سرعة دورانها جعلتها لا تنتبه إلى أنّها منار الواقفة أمام الصندوق وهي تمسك

بكتفي بدلة رقص مشغولة بخرز أزرق ناعم يغطّي الصدر وينتهي عند الخصر بورود حرير أصفر تمتدّ على طرفي فتحتي الساقين. ظنّت منار أنّ برودة القبو أخذت ضيفتها بعيدًا، فاقتربت منها وجلست بقربها وتحسّست ذراعها الملفوف بساتان العباءة، ثم همست باسمها من جديد. بتثاقل فتحت هيلين عينيها، رفعت منار بدلة الرقص أمامها فتلألأ الخرز الأزرق وعكس أصفر الحرير ضوءًا قويًّا.

ـ ما رأيك؟

أدارت منار وجه هيلين برفق جهة الجدار الصخري، فكّت حمّالات صدرها ورمتها جانبًا. نظرت إليها هيلين من فوق كتفها، حاولت أن تنذار إليها، إلّا أنّ منار أمسكت بكتفيها وطلبت منها البقاء كما هي. بهدوء نزعت عنها سروالها الداخلي، خلّصت قدميها منه ورمته فوق المصطبة. أخذت بدلة الرقص وألبستها إيّاها. ابتعدت خطوة، تأمّلتها وطلبت منها الاستدارة نحوها. رتّبت الورود الصفراء التي تزنّر خاصرتها، ثم قالت بدهشة:

ـ لا أصدّق... كأنّه فُصّل على جسدك... تعالي إلى المرآة.

أمسكت منار يدها وأخذتها نحو الصندوق، فتحت الغطاء والتقطت مرآة مستديرة كبيرة.

شريطان من الخرز الأزرق ينزلان على طرفي عنقها نحو صدرها. تبعد منار المرآة قليلاً وتمرّ بهدوء على خصرها. تميل هيلين قليلاً جهة اليمين، لترى فتحة طويلة تظهر ساقيها، محاطة بصفّين من ورود صفراء، يصغر حجمها كلّما اقتربت من كاحليها.

أقنعتها منار أن تبات ليلتها في دارها الواسعة. اتّصلت بكارو العجوز وأخبرته أنّها لن تعود قبل الغد. كانت ليلة طويلة. لم تترك منار بقعة في جسدها إلّا وغرزت أسنانها فيه. لم تبدِ هيلين تذمّرًا وقد وصلت للنشوة عدّة مرّات. لم تتوقّفا عن اللعب إلّا مع ارتفاع آذان الفجر، نامت على سرير منار في الغرفة الواسعة المطلّة على الليوان.

عندما فتحت عينيها على صوت آذان الظهر، لم تجد منار بجانبها. كانت مشغولة بتحضير مائدة الفطور. لبست هيلين عباءتها وخرجت لليوان. المائدة عامرة. سمن نباتي وعسل وجبنة مشلّلة وطبق من مربّى الورد... رحّبت بها منار وكأنّها تراها للمرّة الأولى، ودعتها للجلوس.

ـ دعينا نتناول فطورنا بعدها أصحبك إلى خان خالي. . لا تقلقي، لم أنس الموضوع.

انفرجت أسارير هيلين. تذوّقت من كلّ الأطباق ولم تترك سؤالاً إلّا وسألته عن خالها تاجر الزيت، عن مربّى الورد والجبنة المشلّلة. بدت ثرثارة على غير عادتها. ساعدت منار في حمل الصحون إلى المطبخ الملاصق للّيوان.

أدارت منار المفتاح الأسود الكبير في قفل الباب الخارجي، ثم انطلقتا باتّجاه خان الزيت. كانت هيلين على أحرّ من الجمر للقاء خالها. في الطريق، لم تتوقّف عن ثرثرتها. ظلّت تسأل منار السؤال تلو الآخر، إلى أن وصلتا أمام الخان الذي تدلّ هيأته الخارجيّة على أنّه مدخل إحدى القلاع الأثريّة. نظرت هيلين حولها وكأنّها عرفت المنطقة. قالت لها منار:

ـ هذا باب جنين. . المنطقة قريبة من فندق بارون. .

ما إن دخلت الخان حتى لفحتها رائحة الزيت الحادّة. وقفت مشدوهة أمام أكداس صفائح الزيت التي تبرق في عتمة الخان الواسع. مرّ عامل يجرّ عربة بدولابين محمّلة ببضع صفائح. كلّمته منار، ثم أشارت لهيلين بأن تدخل مكتبًا صغيرًا يطلّ على الخان بنوافذه الزجاجيّة. طاولة عليها دفتر متّشح بالزيت. هاتف أسود قديم، مع بضع كراس من الخيزران،

تلك كانت كلّ محتوياته.

خلف المكتب، صورة قديمة لرجل بطربوش عثماني، يقف مستندًا إلى عصا مزخرفة. يوحي مظهره بأنّه كان ذا نعمة وجاه كبيرين.

ـ هذا جدّي، والد أمّي وخالي.

قالت لها منار، ثم وقفت وأردفت: هذا هو خالي.. ها هو..

وقف رجل في عقده السادس مع عامل العربة. كان يشير إلى صفائح مركونة في جهة ما من الخان. يرتدي قميصًا بنّيًّا داكنًا يكاد يتفتّق عن كرشه المتدلّي. لحيته خفيفة، شعره أبيض. يعتمر قبّعة صغيرة بيضاء اللون، وبيده اليمنى مسبحة طويلة خضراء.

دخل ورحّب بهما متحاشيًا النظر إلى هيلين التي استغربت ترحيبه الباهت. عالجت منار الموقف عندما عرّفته على هيلين وراحت تسرد له قصّة بحثها عن والدها المجهول. ظلّ الرجل يصغي ويعدّ حبّات مسبحته الزرقاء، متمتمًا بين الفينة والأخرى بكلمات مبهمة، ماسحًا وجهه بيمناه عدّة مرّات.

فجأة، أخذ الخال من منار دفّة الحديث. سأل هيلين عن اسمها الكامل وعن موطنها الأصلي. أين تقيم ومنذ متى هي بحلب وإن كانت سألت أحدًا من قبله أم لا. فتح تحقيقًا

طويلاً قبل أن يطلب من أحد عمّاله ثلاثة فناجين قهوة. فرك مسبحته بين كفّيه الكبيرتين، ثم رماها على الطاولة وقال بصوته الخشن.

ـ ماالمطلوب منّي؟

نظرت منار إلى هيلين، ثم إلى خالها الذي انشغل بالردّ على هاتفه الأسود بعدما أصدر رنينًا عاليًا مزعجًا. همست هيلين في أذن منار:

ـ قولي له أبحث عن شخص اسمه بكري بيك.

طلبت منها منار التريّث. هي تعرف خالها جيّدًا، يبحث في تفاصيل الأمور ويدقّق في جزئيّاتها. تعرف كيف تصل به للنقطة التي تريد.

بعدما أنهى مكالمته، عادت منار للقصّة مجدّدًا وأضافت تفصيلاً جديدًا. هيلين تبحث عن ثلاثة أشخاص كان أحدهم تاجر زيت. زمّ الرجل شفتيه مستغربًا. مهّدت منار للمفاجأة. حكت له عن الفارق بين أخلاقيّات وقيم الشرق والغرب. قطع عليها سردها وتدخّل بلهجة حازمة:

ـ أعطيني من الأخير. ما الذي حدث؟

رمت منار بباقي الحكاية على طاولته الملطّخة ببقع الزيت. أبدى تأفّفه واستغفر ربّه. أمسك مجدّدًا بالمسبحة.

سكتت منار وبدا الخوف على وجه هيلين. لم تستسلم منار، عادت لتحرّك جانبًا آخر من القصّة. لم يترك لها الخال مجالاً. سأل سؤالاً محدّدًا.

ـ من هو تاجر الزيت الذي تبحث عنه؟

أشار لأحد عمّاله من خلف الزجاج إلى أمر ما. عدّل من جلسته وحدّق بعينيه المتوقّدتين إلى منار التي تلعثمت وهي تنظر إلى هيلين، ثم قالت بابتسام:

ـ شخص اسمه بكري بيك...

أرخى الرجل يديه على جنبيه، شدّ ظهره إلى كرسي الخيزران، أغمض جفنيه نصف إغماضه كمن يفتّش في ذاكرته عن شيء ما. كانت منار منشدّة إلى تقاسيم وجهه التي أوحت أنّه عرف الرجل من أوّل لحظة، إلّا أنّه تصنّع اللامبالاة. كرّر الاسم على لسانه عدّة مرّات. أخذ يلهو بمسبحته ويصنع بها أشكالاً هندسيّة على الطاولة، متجنّبًا النظر إليهما، ملتزمًا الصمت. تجرّأت منار التي تأكّدت أنّ خالها عرف بكري بيك:

ـ هل عرفته خالو؟

ابتسم الخال، نظر إليهما، ثم سأل منار كيف تعرّفتِ على هيلين. شرحت له عن الصدفة التي قادتها لتتعرّف إليها. مازح الخال هيلين قائلاً:

ـ هل كانت والدتك جميلة إلى هذا الحدّ ليقع بكري بيك في حبّها؟

فجأة خلع الرجل وقاره وجدِّيّته، فبدا بشوشًا كثير الكلام. أخذ يسأل هيلين عن لندن التي زارها عندما كان شابًّا يافعًا برفقة والده، قبل نصف قرن. فكّرا بالتجارة هناك، لكن لم يوفّقا. ارتاحت هيلين له، كأنّ شخصًا آخر أخذ مكانه. عادت وسألت عن بكري بيك. قام وأشار لها بأن تتبعه. وقفت وهي تنظر إلى منار. أخذتها منار من ذراعها ولحقتا بالخال الذي وقف أمام باب خانه وقال لهما:

ـ هل ترين ذاك الخان المقفل على الطرف الآخر من الشارع؟ هذا خان بكري بيك.

فتحت هيلين فمها مندهشة وهي ترى بابًا كبيرًا يبدو أنّه أُغلق منذ زمن بعيد. سألت عن سرّ إغلاقه، فبلع الخال لعابه، التفت حوله، ثم طلب منهما العودة إلى المكتب.

أوغل الخال في السنين التي حفرت أخاديدها على مساحة وجهه. بكري بيك من أهمّ وأكبر تجّار الزيت في حلب. امتدّت تجارته إلى الموصل وبغداد وعمان والرياض. كان ماهرًا يمتلك عدّة خانات، في الجلوم وباب الحديد وسرايا إسماعيل باشا. تنقّل كثيرًا بين البلدان. معارفه وأصدقاؤه كثر، رأسماله الأكبر كان سمعته الطيّبة بين التجّار..

تحدّث الخال مطوّلاً عن بكري بيك. استمتع بنبش ذاكرته وتعريضها للهواء كتربة يتيمة تصحّرت مع الزمن، إلى أن وصل لمفترق فتردّد في اختيار الزقاق. وقف قليلاً. رفع قبّعته الصغيرة وحكّ رأسه. شعرت منار أنّ الخال وصل لعقدة الحكاية، وهو يبحث الآن عن النهاية. مضى مجدّدًا في لذّة السرد. سلك الطريق الوعرة في حياة بكري بيك. أخبر هيلين كيف قام بكري بيك، مع مجموعة من التجّار في ثمانينيّات القرن الماضي، بتمويل الكتائب المسلّحة التي وقفت بوجه الحكومة. كان من المتحمّسين لقلب الحكم. يُقال حتى بأنّه كان العقل المدبّر وراء إضراب حلب الشهير. ولم يتوقّف الأمر عنده فقط إذ كان ابنه علاء طبيبًا شابًّا يقود جبهة أخرى ضمن النقابات. تحوّلت حلب إلى جحيم وسال الدم غزيرًا على هذه الطرقات.

تمكّن رجال الأمن بعد وقت طويل من إلقاء القبض على بكري بيك. في كمين محكم. كان برفقته ابنه علاء. منذ ذاك الحين، انقطعت أخباره. البعض ممّن خرج من سجن تدمر الصحراوي، قالوا إنّهم شاهدوه هناك، والبعض الآخر أكّد أنّه أُعدم هو وابنه. أمّا زوجته وباقي أولاده ـ فقد هربوا باتّجاه العراق وانقطعت أخبارهم.

توقّف الخال عن السرد عندما دخل أحد عمّاله يحمل على

صينيّة نحاسيّة ثلاثة فناجين قهوة. أشاح الخال بوجهه نحو زجاج المكتب المطلّ على الشارع المزدحم، ونظر بعيدًا حيث خان بكري بيك المقفل وقد تجمّعت حول بابه العالي أرتال من الأوساخ والقمامة، ومسح عن حوافي عينيه دمعتين كانتا تبحثان عن طريق.

نظرت هيلين إلى منار التي سرحت بدورها بعيدًا. أمسكت فنجان قهوتها، وقبل أن ترشفه، انتبهت إلى طبقة من الزيت تطفو فوق صفحته السوداء.

مطعم العندليب

بعد أن رجعت من سهرتها الطويلة مع أبو الرّيح في مطعم العندليب، عاند هيلين النوم. تقلّبت في الفراش يمينًا ويسارًا، ثم قامت ووقفت أمام المرآة كمجنون يكتشف ملامحه للمرّة الأولى. بحثت عن الوصيّة في حقيبتها، أعادت قراءتها.

خرجت للشرفة عدّة مرّات، دخّنت كثيرًا، فكّرت بكلمات أبو الرّيح وكيف وقفت عاجزة أمام طلبه بالزواج منه. كانت قد أرجأت الحديث بالموضوع إلى وقت آخر، فعرف أنّها تهرّبت منه فلم يشأ إحراجها، دخل قوقعة صمته قليلاً ثم خرج بحلّة جديدة.

نزلت بهو الفندق مرّات عدّة، بحثت عن العجوز فلم تجده، انسلّت إلى القبو، سمعت أنينًا قادمًا من داخله، خافت

وتسلّقت الدرج نحو غرفتها. سرّ ما يخبّئه العجوز في سراديب القبو. رأته منذ أسبوع يلهث وهو يصعد درج القبو. قالت له أكثر من مرّة إنّ لديها فضولاً لزيارة القبو، فغيّر العجوز كعادته الحديث مبديًا عدم اكتراثه برغبتها.

بعد أن رمت الشمس خيوطها الأولى على الستارة البيضاء ورسمت عليها مستقيمات ضوئيّة طوليّة، أحسّت هيلين بنعاس شديد. لم تستسلم، قرّرت النزول إلى الشارع، غسلت وجهها وخرجت. كان العجوز ما يزال مختفيًا، وحدها أرليت كانت مشغولة بتلميع بلاط البهو.

وقفت أمام سور الفندق. المدينة في قمّة حيويّتها. مشت باتّجاه شارع القوتلي. مجموعة شباب تحلّقوا حول طاولة معدنيّة أمام محلّ لبيع سندويشات الفلافل. كانوا يأكلون بنهم. انعطفت يمينًا حيث شارع القوتلي. زحام غير طبيعي. بسطات الباعة في كلّ مكان. بائعو الدخّان المهّرب وألعاب الأطفال وأجهزة الهاتف النقّال والعطورات والألبسة، يحتلّون الأرصفة وحواشيها. لم تلحظ هذا الزحام من قبل. كأنّ المدينة مقدمة على أمر جلل. نادى عليها بعض الباعة بوجوههم التي يطفح منها الشرّ. هكذا شعرت، كأنّهم كلّهم نحتوا من صخر صلد. حتى تلطيشاتهم لها كانت فجّة وقاسية مع أنّها لم تفهم عليهم كثيرًا. حركاتهم كانت توحي بأنّهم من صنف آخر غير البشر!

وصلت لنهاية الشارع. نظرت من بعيد باتّجاه الساعة الحجريّة العملاقة المتوقّفة منذ عقود، خافت أن تلج زحامًا آخر، فقرّرت أن تعود أدراجها إلى الفندق.

وجدت العجوز كارو جالسًا في زاوية من البهو يشرب قهوته. استأذنته الجلوس إليه. بدا مرتابًا عندما عرف أنّها كانت خارج الفندق. نقلت إليه أرقها ليلة أمس، وكيف عاند النوم جفنيها. قفز العجوز فوق كلماتها وراح يحدّثها عن مخاطر خروجها دون علمه. المدينة لم تعد آمنة. الدولة أطلقت سراح الألوف من المساجين، مجرمين وتجّار مخدّرات وذوي سوابق. بات هؤلاء ينتشرون في كلّ مكان. إنّها محاولة لإرضاء الشعب. المظاهرات باتت عادة أسبوعيّة. كلّ يوم جمعة، بعد صلاة الظهر. أحياء كثيرة دخلت سكّة المظاهرات. صلاح الدين والسكّري والشعار والكلاسة. هناك من يحاول إشعال المدينة، أجهزة الأمن مشغولة بهؤلاء.

وضعها العجوز في صورة المدينة التي تغيّرت خلال الأسابيع القليلة الماضية. كان قلقًا من عودة سوريا إلى سيناريو الثمانينيّات. عبّر عن مخاوفه من سيطرة ذوي اللحى على دفّة الحكم.

ـ المسلمون في الشرق تغيّروا كثيرًا. مزجوا السياسة مع الدين، فخرجوا بخلطة عجيبة لا تشبه لا السياسة ولا الإسلام.

ولج بها العجوز في ثنايا المدينة. التجّار وأصحاب المعامل والشركات يفكّرون بالهرب. استشعروا بالعاصفة التي باتت تلوح لهم من بعيد. حتى الفندق بات فارغًا. لم يعد لديه سوى هيلين وزبون آخر، عجوز من أرمينيا. «هل لاحظتِ ذلك؟ انظري، أين الزبائن؟ تبخّروا فجأة».

لم تقنع هيلين بمخاوف العجوز، المدينة مزدحمة والأمور هادئة. أبو الرّيح أكّد لها أنّ الحكومة تقوم بإصلاحات كبيرة. رمت وساوسه خلف ظهرها وعادت لتسأله عن القبو.

ـ بعد منتصف الليل، بحثتُ عنك ولم أجدك. نزلتُ إلى القبو. كأنّي سمعت أنينًا...

تغيّر وجه العجوز، ارتبك واختنق بدخان سيجارته، فسعل سعالاً حادًّا. تمالك أعصابه واصطنع ضحكة صفراء:

ـ كنتِ خائفةً، فتهيّأ لكِ ذلك.

لم تعترض هيلين على جملته، عرفت أنّ العجوز ما زال مصرًّا على إخفاء سرّ القبو، فسارعت إلى إبداء استيائها من فشلها في البحث عن والدها المجهول. إسماعيل آغا قُتل برصاص مجهول، وبكري بيك اختفى في سجن تدمر الصحراوي، ولم يبقَ أمامها سوى إسحق تاجر الصابون. الخال أكّد لها أنّ بحثها عن إسحق لن يجدي نفعًا. أصلاً اليهود تركوا خلفهم كلّ شيء، منذ أكثر من عقدين ونصف

العقد، منازلهم ومتاجرهم وأراضيهم، وهاجروا إلى أرض الله الواسعة. إنّ مجرّد ذكرها لاسم إسحق أثار الرعب في قلب الخال، ولولا منار لكان ربّما طردها من خانه. تدخّلت في الوقت المناسب وأقنعته أنّ الصدفة هي التي قادتها للبحث عن هذا الشخص. كانت ردّة فعل الخال قويّة، لم تفهم هيلين سببها. ملامحه دلّت على انزعاجه الشديد.

ـ ما هذه المصيبة، إذا كانت والدتها شرموطة، ما شأني أنا؟ لتذهب ولتبحث بعيدًا. . .

فيما بعد، فهمت هيلين من منار خطورة البحث عن إسحق وسرّ انزعاج الخال. وها هو العجوز يؤكّد لها الأمر، مضيفًا ألّا جدوى من البحث عنه وما عليها سوى الاستسلام لقدرها. نصف الأرمن عاشوا بلا آباء وأمّهات. عاد العجوز إلى أسطوانته المفضّلة.

فترت همّة هيلين بعدما غالبها النعاس، فعالجته بفنجان من القهوة مع الحليب. نصحها العجوز بأن تسافر وتترك له رقم هاتفها، فربّما أفادها بشيء ما مستقبلاً بعد أن عرفت مصير الرجال الثلاثة. كانت ما زالت تشعر أنّ العجوز ما زال يحتفظ في سراديبه الدفينة بسرّ ما.

مرّت الأيّام على هيلين رتيبة ومملّة. اتّصلت بها منار عدّة مرّات، فتهرّبت من لقائها، وأبو الرّيح ظلّ متعلّقًا بشرفتها، فكانت تختبئ وتراقبه من دون أن يراها.

تخرج صباحًا لتتجوّل في الأسواق وحيدة، ولا تعود إلّا عندما تصبح الشمس عموديّة في أوج حرّها، تتغدّى وتصعد إلى غرفتها تستلقي على السرير، تتقلّب يمينًا ويسارًا، وهكذا دواليك.. إلى أن جاء يوم رنّ فيه هاتفها. طلب العجوز أن تنزل إليه فطارت من مكانها ظانّة أنّه قرّر أخيرًا أن يكشف لها سرّ القبو. كانت صدمتها كبيرة عندما سلّمها ظرفًا صغيرًا من القنصليّة البريطانيّة في حلب، فتحت المظروف وقرأت ما بداخله، ثم مزّقته قطعًا صغيرة وجلست في البهو تفكّر. سألها العجوز ببرود عن أمر الظرف وكأنّه يعرف ما بداخله،

فلم تردّ عليه بداية إِلَّا أنْ وجدته مدخلاً للإلحاح عليه من جديد.

ـ يطلبون منّي مغادرة سوريا... لم تعد آمنة كما قلت أنت... ماذا أفعل برأيك؟

أسهب العجوز كعادته في التمهيد، دخل وخرج من أبواب كثيرة، حاول إقناعها أنّ الأمور وصلت لنهايتها وما كانت تبحث عنه تحوّل إلى لغز ضيّع الزمن مفاتيحه. قال إنّ تحذيرات ومخاوف القنصليّة في محلّها، فالمدينة باتت على صفيح من نار.

لم تسمع كلّ كلماته. كانت تفكّر بالقبو. العجوز يريد أخذها بعيدًا. هي واثقة من ذلك. عليها الحصول على مفتاح القبو. لمعت الفكرة في دماغها وكبرت مثل سحابة سوداء حجبت ضوء الشمس. تخيّلت الباب الخشبي العتيق ينفتح أمامها على مصراعيه. تجول براحتها بين محتوياته القديمة. نظرت إلى طاولة العجوز. هي تعرف جيّدًا مكان المفتاح، شاهدته أكثر من مرّة وهو يعلّقه على طرف اللوح الخشبي من خلفه. بدت مرتاحة للفكرة. لا بدّ لها من المغامرة!

مضى العجوز بعيدًا في تحليلاته ومخاوفه في حال استلمت الجماعة قيادة الحكم، في حين كانت هيلين تقيس المسافات بعينيها بين طاولته ودرج القبو، تفكّر بالساعات

القليلة التي يهجع فيها العجوز للنوم. المشكلة هي أنّه يكون صاحيًا طوال الوقت تقريبًا. ستختار اللحظة المناسبة، وستنجز المهمّة من دون أن تلفت انتباه العجوز.

الساعة القديمة ماركة سنجر في بهو الفندق كانت تشير إلى التاسعة والنصف. قطعت هيلين على العجوز استرساله في الحديث وتحجّجت أنّها على موعد مع أبو الرّيح. صعدت الدرج إلى غرفتها، لبست فستانها الأزرق القصير وزيّنت أذنيها بقرطين ذهبيين كانت اشترتهما مع منار، من سوق الصاغة بالمدينة القديمة. خرجت إلى الشرفة. كانت عينا أبو الرّيح لها بالمرصاد. لوّحت له وأشارت أنّها قادمة إليه.

قبل أن تخرج من الفندق، لاحظت غياب العجوز واختفاء مفتاح القبو. عرفت أنّه في القبو. نزلت الدرج المعتم ووقفت أمام الباب. أصاخت السمع. أنين خافت كان يتسرّب من بين الشقوق التي أحدثها الزمن في أسفل الباب بفعل الرطوبة. جثت على ركبتيها ووضعت أذنها على الباب. كانت واثقة من الأنين. بدت أكثر إصرارًا على مغامرتها. الليلة.

كان أبو الرّيح ينتظرها على باب الفندق. استغربت وجوده هنا. لم ينبس بحرف. ابتسم ورافقها إلى المطعم الذي بدا فارغًا على غير عادته. وضع غريب، في النهار المدينة مزدحمة لدرجة تكاد لا تصدّق، وفي الليل تبدو مثل مدينة أشباح. لم

تتعوّد أن ترى المطعم بهذا الهدوء. المدينة تغيّرت كثيرًا في الأيّام الأخيرة.

«لم تعد المدينة آمنة، لذلك جئت لمرافقتك»، قال أبو الرّيح، ثم تنهّد بعمق. مفتونًا كان بالفستان الأزرق الذي كشف عن صدر هيلين الأبيض. لم يرفع عينيه عنها إلى أن جاء شوكت الذي تباطأ في تسجيل طلباتهما بعدما راق له أيضًا النظر إلى هيلين. فسّر لها أبو الرّيح سرّ غياب الزبائن، ازدياد حوادث القتل والخطف والسلب ليلاً. السبب هو الغياب التامّ لرجال الشرطة الذين تركوا الحبل على غاربه.

أخبرته هيلين أنّ القنصليّة طلبت منها مغادرة البلاد، وهي لم تأخذ قرارها بعد. ما زال سرّها مدفونًا في مكان ما من هذه المدينة، فهل تسافر وتترك خيوطها معلّقة في الهواء، أم تمضي في بحثها رغم التحذيرات؟ ستبقى، فالمدينة ما زالت آمنة بما يكفي لتتابع بحثها.

ووقف أبو الرّيح عاجزًا أمام قرارها، فرك عينيه ورفع رأسه نحو السماء المرصّعة بالنجوم، ثم قال بعد أن أنهى شوكت ترتيب الصحون على الطاولة:

ـ لا أعرف... ما المطلوب منّي؟

ـ العقدة عند العجوز كارو... هناك سرّ ما يخبّئه في جوف القبو.

أسرّت له عن الاختفاء الدائم للعجوز في القبو، عن الأنين الذي سمعته للمرّة الثانية وعن ارتباك كارو وانزعاجه من فضولها وأسئلتها. لم يتحمّس أبو الرّيح لمغامرتها. لن تفهم شيئًا. الأرمن لا يكتبون إلّا بالأرمنيّة وهم بالكاد يتعلّمون اللهجة العربيّة المحكيّة. حاول طرد الفكرة من رأسها، لكن هيلين دافعت عنها بحماسة، ثم طلبت منه مصباحًا يساعدها في الكشف عن محتويات القبو. أعطاها أبو الرّيح قدّاحته، في أسفلها مصباح صغير ضوؤه قوي. كلّ من يسكن حيّ الشيخ مقصود غربي يحتاج هكذا مصباح، فالشوارع معتمة ومليئة بالحفريّات والمطبّات. أعجبتها الفكرة، في آخر السهرة تأخذ منه القدّاحة.

انتصف الليل. ما زالت هيلين ماضية في سهرتها مع أبو الرّيح. لن تعود إلّا في وقت متأخّر، ريثما يكون العجوز قد خلد إلى النوم في غرفته المنزوية في الطابق الأوّل. لن تتراجع عن قرارها. كانت فرصة لأبو الرّيح ليحوم حولها ويتغزل بها، بعدما رمى معطف صمته مذ أن تعرّف إليها. ليلتها، تمنّى لو أنّ زلزالاً قويًّا ضرب المدينة ليحميها في صدره الواسع، يضمّها، يشمّ رائحة عطرها الفوّاح، ثم يحملها ويهرب بها بعيدًا عن المدينة التي ستتهادى كقطع كرتونيّة هشّة. وعدته أنّها ستبقى على اتّصال به، ستكتب له عنوانها ورقم هاتفها. لا تدري، الأرض كرويّة وربّما يلتقيان في مكان ما من هذا العالم.

فرغ المطعم الذي انصرف زبائنه القلائل. اقترب شوكت وهمس في أذن أبو الرّيح. نظر أبو الرّيح إلى ساعته. لقد جاوزت الثانية من بعد منتصف الليل. أشعل آخر سيجارة في علبة دخانه الحمراء الطويلة، ثم أعطى القدّاحة لهيلين كما طلبت. قاما ورافقها إلى باب الفندق.

كان الحارس ممسكًا بخرطوم الماء يرشرش النباتات في الفسحة الملاصقة للفندق، فلم يتنبه إليها. صعدت هيلين الدرج بخفّة. كان البهو فارغًا وقد أُطفئت أغلب أنواره. كرسي العجوز فارغة، يبدو أنّه انصرف لغرفته. اقتربت من الطاولة ودخلت خلفها. مفتاح القبو الأسود معلّق في مكانه. التفتت حولها كلصّ يتأكّد من خلوّ المكان، أخذت المفتاح بهدوء، أحكمت قبضتها عليه، خرجت من خلف طاولة الاستقبال وعينها على الباب الخارجي للفندق.

بحذر شديد، توجّهت نحو الرواق المؤدّي إلى درج القبو، واطمأنّت بعد أن دلفت في العتمة. خلعت حذاءها وحملته بيدها، ثم وضعته أعلى الدرج. تلمّست بأصابع قدميها الدرج ونزلت. وصلت قرب الباب. أشعلت ضوء القدّاحة ثم أدخلت المفتاح الأسود في القفل. أدارته، فأصدر صريرًا مزعجًا. توقّفت لبرهة ثم فتحت الباب الخشبي الثقيل. رمت بحزمة الضوء في جوفه، وراحت تدقّق في الموجودات. خزن خشبية

تبدو مصنوعة من الفورمايكا. مرايا مكسورة مسنودة على عمود في منتصف الفسحة قبالة الباب. فاترينة عكس بلّورها حزمة الضوء إلى جهة أخرى، حيث طاولة وعليها هواتف قديمة.

خطت خطوة واحدة داخل القبو المظلم، وظلّت ممسكة بالباب مفتوحًا. عادت تدقّق في محتوياته الأخرى. سجاجيد ملفوفة بجانب بعضها مرتكية إلى الجدار. سرير خشبي مفكوك من أحد طرفيه. صناديق مليئة بالخردة. لمبديرات. تعاليق ثياب. ساعات جداريّة ترفع سيقان عقاربها نحو السماء.

تركت الباب ينطبق على نفسه بهدوء، وتقدّمت ببطء على ضوء القدّاحة. تسارعت دقّات قلبها وزاد تنفّسها صعوبة، شعرت بالغبار يلتصق بأسفل قدميها الحافيتين. تفحّصت كلّ محتويات القبو. يشبه سوقًا لبيع الخردوات أو المفروشات المستعملة. ليس هناك ما يشير لشيء مهمّ. تلفّتت حولها عدّة مرّات. انتابها هلع شديد عندما رسم الضوء على أحد الجدران ظلًّا لرأس كبير. تنفّست الصعداء ومشت باتّجاه دهليز قصير ينتهي بباب ضيّق. فكّرت بما وراء الباب. تردّدت كثيرًا وهي تتقدّم نحوه. لم يبق أمامها إلّا هذا الباب. لا شيء غريب حتى الآن، الأمور طبيعيّة. أمسكت بمقبض الباب الضيّق وفتحته بهدوء. عاد قلبها الصغير للخفقان مجدّدًا، كاد أن يُقتلع من مكانه، أغمضت عينيها قليلًا ثم فتحتهما بهدوء.

في منتصف الغرفة، سرير يشبه سرير غرفتها. مرّرت عليه الضوء، لا شيء يثير الخوف. السرير فارغ ومغطّى بشرشف أرجواني لامع، على أطرافه تبعثرت محارم ورقيّة مستعملة منتشرة على بلاط الغرفة. بعضها ملوّن. رفعت الضوء على الجدار الداخلي. مفاجأة كبيرة. حبال غسيل تصل بين طرفي جدارين منشور عليها سراويل داخليّة نسائيّة. عدد لا يحصى من السراويل. عشرات. اقتربت منها. بعضها يبدو من ماركات قديمة. كانت منشورة بعناية فائقة، كأنّها معروضة في واجهة محلّ. مدّت يدها إلى سروال أبيض على طرف الحبل الأوّل، علقت يدها بقصاصة ورقيّة مخروزة على طرفه العلوي، سلّطت الضوء، مكتوب عليها بالأرمنيّة. يبدو أنّه اسم صاحبة السروال. حاولت أن تفكّ الحروف. عضّت شفتها نادمة لأنّها لم تنتبه إلى دروس العجوز. تذكّرت الحرف الثالث. اختلطت عليها الأحرف.

انتقلت إلى سروال آخر. ورقة أخرى معلّقة بطرفه العلوي. كلّ السراويل تحمل أسماء. توقّفت بعدما تأكّدت من حبل آخر. وقفت بين حبلين. فكّرت أن ترسم في دماغها كيف كتب العجوز اسمها واسم والدتها بالأرمنيّة. لا يهمّ اسمها. المهمّ أن تتذكّر اسم والدتها. هي واثقة من الحرف الأوّل، يشبه الرقم أربعة، أمّا باقي الأحرف فلا تذكر عنها شيئًا. الوقت يمرّ. ألقت نظرة على ساعتها. قرّرت أن تفتّش

السراويل واحدًا واحدًا، لربّما وجدت اسم أمّها. إنّها واثقة إن رأت الاسم مكتوبًا ستتذكّره. الحرف الأول يشبه الرقم أربعة. تذكر ذلك جيّدًا.

بدأت بالحبل الأوّل. تلمّست السراويل ودقّقت في الأوراق المثبّتة على أطرافها العلويّة، بعضها تفوح منه رائحة عطر قديم، وبعضه الآخر مسكون برائحة غريبة تشبه الحموضة. انتقلت إلى الحبل الثاني فالثالث. دقّقت النظر في سروال مصنوع من جلد ناعم بلون أحمر. تذكّرت ليزا، لو كانت هنا لجرّبته على الفور، فهي مغرمة بهذه الأنواع.

انتقلت إلى الحبل الرابع، ما قبل الأخير. سروال أبيض بدا لها بلون سكّري للوهلة الأولى. نفضت عنه الغبار بأصابعها فتطايرت ذرّات صغيرة أمام وهج المصباح. كان مصنوعًا من الدانتيل والساتان، موديل عرائسي كلاسيكي. أمسكت الورقة وقرّبت الضوء، الحرف الأوّل يشبه الرقم أربعة. للحظات لم تصدّق عينيها، مالت برأسها مع الخطّ المائل، هي متأكّدة. فكّت الملاقط الخشبيّة عن طرفيه. تفحّصته. خطّ أصفر واهن كان يرتسم على الطرف الداخلي من جهته الأماميّة، وفي زاويته العلويّة من الخلف. قصاصة قماشية تحمل الماركة وجهة الصنع. صنع في بريطانيا.

باتت واثقة أنّه سروال والدتها. قرّبته من أنفها الصغير.

رائحته تشبه رائحة الكتب القديمة. وضعت القداحة بين أسنانها ورفعته أمام وجهها. هذا مقاسها وذوقها الأرستقراطي يبدو واضحًا. عادت تتأكّد من الاسم المكتوب بالأرمنية. جرّبت أن تحفر حروفه بذاكرتها. كانت سعيدة بكنزها الثمين.

أعادته إلى الحبل وثبّتته بالملاقط كما كان. ألقت نظرة أخيرة على قصاصة الورق، ثم انسلّت من الغرفة كنسمة خفيفة. أقفلت الباب الخارجي وتلمّست الدرج، لم تنتعل حذاءها بل حملته بيدها، بعدما تأكّدت أنّ الأمور على ما يرام.

كان حارس الفندق جالسًا على كرسيّه وظهره نحو الباب. كان الفجر قد بدأ يفرد جناحيه على وقع آذان الجوامع. أعادت المفتاح إلى مكانه وصعدت الدرج بقدمين حافيتين.



باب الفرج

•

عشرة أيّام وهي تحوم حول العجوز كارو. حاولت أن تستدرجه إلى فخاخها، من دون فائدة. كأنّ أحدًا وشى في أذنه أنّ شكوك هيلين تحاوطه من كلّ جانب. بات دقيقًا في كلماته ومقلًّا في كلامه. إلى أن باغتته هيلين مرّة وقالت بعد أن طفح كيلها من أعصابه الباردة:

ـ أفهم من كلامك أنّك لم تقع في غرام كاترين؟

هرب العجوز من السؤال كثعلب. شعر أنّه أوشك على الوقوع في فخّ محكم، مسح شفته المتدلّية بسبّابة يده المرتجفة، وافتعل زعلاً مصطنعًا. وبّخها على وقاحتها، كما يوبّخ أب ابنته المراهقة، حرد وقام من مكانه. لأوّل مرّة رأته يصرخ على أرليت، مسح بيده على درابزون الدرج وتحجّج بالغبار المتراكم عليه. لم تقل أرليت شيئًا، أخرجت من جيب

مريولها البنّي خرقة وأخذت تمسح.

بقيت العلاقة متوتّرة مع العجوز يومين كاملين. كلّما اقتربت منه هيلين كان يشيح بوجهه ويبدي انشغاله بأمر ما. مازحته أكثر مرّة بلا فائدة. جلست في بهو الفندق لساعات على أمل أن تعيد المياه إلى مجاريها. حتى عندما كانت تعود متأخّرة ليلاً من مطعم العندليب، كان يكتفي بالنظر إليها وهي تمسّي عليه، ملتزمًا الصمت. فكّرت بحيلة ما لتكسر الجليد الذي تراكم بينهما، فاشترت له قدّاحة سجائر من المحلّ المجاور للفندق وفاجأته بالهديّة. لم يتحرّك العجوز. تركها على الطاولة. لم يشكرها حتى، وبقيت القدّاحة على الطاولة حتى صباح اليوم التالي.

رنّ هاتف الغرفة، طلب منها العجوز النزول للبهو. هناك شخص من القنصليّة يطلبها. كان موظّفًا برتبة مرموقة جلس معها لمدّة ربع ساعة ثم غادر الفندق مستعجلاً. يومها خرج العجوز عن صمته وسألها عمّا يريده الموظّف. طلب منها مغادرة البلاد على جناح السرعة، قالت، فوضعها لم يعد آمنًا والمدينة قد تشتعل في أيّة لحظة، كلّ الرعايا البريطانيين غادروا منذ أسبوع ولم يتبقّ سواها. ثم أضافت:

ـ قال لي إنّ بركان حلب... يوم الأربعاء... هل في حلب براكين؟

مضى العجوز في حديثه معها وبدا طبيعيًّا كأنّه لم يكن

على خصام معها. شرح لها كيف يختار المتظاهرون أيّامًا محدّدة يسمّونها باسم المدن والبلدات من أجل إشراكها في التظاهر. غدًا بركان حلب، محاولة لإثارة نخوة أهلها ليدخلوا سكّة العصيان. قال هذا ثم طلب منها البقاء غدًا في الفندق وعدم الخروج. بدا حريصًا عليها وحنونًا.

ـ قد تحدث مفاجأة وتنقلب المدينة رأسًا على عقب، وقد يسقط قتلى وجرحى. هذه المدينة تشبه البركان، وقد تقذف حممها في أيّة لحظة...

قاطعته هيلين:

ـ غدًا صباحًا، أنا على موعد مع صديقتي منار في دارها الواسعة.

نصحها العجوز بتأجيل الموعد إلى يوم آخر. يجب أخذ كلام موظّف القنصليّة على محمل الجدّ. حتى شركات الطيران ربّما توقّفت عن رحلاتها. الطرق البرّيّة لم تعد آمنة مثل قبل. العجوز نفسه صار يفكّر بإغلاق الفندق إلى حين آخر. لم يعد هناك نزلاء.

شعرت هيلين أنّ المدينة أخذت تضيق عليها. تحذيرات الموظّف، والعجوز، وأبو الرّيح. الكلّ يتنبّأ برياح قويّة قد تعصف بالمدينة، رغم حرارة الصيف الذي حلّ كضيف ثقيل ومزعج. وحدها منار بقيت غير آبهة تمارس طقوس شبقها في زوايا دارها الواسعة. كأنّها تعيش في بلد آخر.

استيقظت هيلين باكرًا. أخذت حمّامًا. تعطّرت. لبست فستانها الأزرق وأسدلت فوقه العباءة. استوقفها العجوز وهي خارجة من الفندق. عبثًا حاول أن يثنيها عن موعدها مع منار، ثم أعلن استسلامه أمام عنادها. استقلّت سيّارة أجرة وتوجّهت إلى ساحة الملح. المدينة هادئة. بائعو البسطات وزحام المارّة والسيّارات. المحلّات مفتوحة. ليس هناك ما يدلّ على حدث غير طبيعي.

كانت منار تنتظرها على أحرّ من الجمر. فرشت الطاولة الخشبيّة تحت الليوان بما لذّ وطاب من أطباق الطعام. خلعت هيلين عباءتها وجلست. أنهت فطورها. همست لها منار وطلبت منها النزول إلى القبو الرطب. كانت متشوّقة للقائها.

لم تخرجا من القبو حتى انتصف النهار. كانت مرهقة ومتعبة. فتحت لها منار باب غرفتها وعرضت عليها الاسترخاء على سريرها العريض. اعتذرت. تفضّل العودة إلى الفندق. أغرتها منار بالذهاب مساءإلى حمّام النسوان في باب النصر، هناك ستعرّفها على صديقاتها من بنات العشرة، ممّن يشاركنها الميول نفسها. كرّرت هيلين اعتذارها وتحجّجت بانشغالها بأمر ما، ثم خرجت على أمل أن تعود إليها بعد يوم أو يومين.

مشت في الأزقّة التي حفظتها بعد عناء. وصلت الساحة. وقفت قبالة جامع التون بانتظار سيّارة أجرة. من بعيد، لمحت زحامًا كبيرًا بالقرب من القصر العدلي. سيّارات شرطة. رجال مدجّجون بالأسلحة والعصي والهراوات، بعضهم يركض باتّجاه الأزقّة الضيّقة المقابلة للقصر العدلي، وآخرون يبدون على أهبّة الاستعداد. أشارت لسيّارة أجرة مسرعة، ضرب السائق رجله على المكابح، فانزلقت السيّارة أمتارًا على الإسفلت الملتهب. هرولت وركبت السيّارة.

من لكنتها ووجهتها عرف السائق أنّها أجنبيّة. سألها عمّا تفعله في مثل هذا المكان. ارتبكت هيلين وتلعثمت بكلماتها. توجّس السائق من أمرها. انعطف يسارًا باتّجاه جب الفبة، انتبهت هيلين إلى خلوّ الشارع من المارّة والسيّارات، كأنّ بركانًا ضرب المدينة فهجرها أهلها. لا أحد. بعض الشبّان

يحملون عصيًا وسكاكين في زوايا بعض الشوارع. خافت وتسارعت دقّات قلبها، تذكّرت سريعًا كلمات العجوز وتحذيراته.

ما إن وصلت السيّارة دوّار باب الحديد حتى صدمها المشهد. جموع من الشباب بسيوف وهراوات وأسلحة يركضون من طرف إلى آخر، وهم يهتفون مردّدين اسم رئيس الدولة، مهدّدين ومتوعّدين. على الأرصفة جثث لرجال مضرّجة بالدماء، بعضهم ما زال على قيد الحياة، يتلوّى. هالها المنظر. أغمضت عينيها وكادت أن تغوص في نفقها الحلزوني المظلم، لولا السيّارة التي مالت يمينًا ويسارًا وهي تشقّ الجموع الغاضبة، إلى أن دخلت شارع باب النصر وجادّة الخندق. المحلّات مقفلة، على الأرصفة بقايا زجاج مكسور وحجارة.

وصلت السيّارة ساحة باب الفرج. أرتال من رجال الأمن والشرطة يقطعون الطرق ويقيمون الحواجز. أشاروا على الفور للسيّارة بالتوقّف. ضربوا بالعصي على جنبيها. توقّف السائق مذعورًا. تكوّمت هيلين على نفسها كطفلة. طلبوا من السائق بطاقته الشخصيّة وسألوا عن وجهته. التفتوا إلى هيلين، استعجلوها ببطاقتها الشخصيّة. تلكّأت. صرخ بعضهم بصوت عال. تدخّل السائق مرتجفًا. ما إن عرفوا أنّها أجنبيّة حتى

أحاطوا بالسيّارة وعلت الأصوات. صحافيّة. صحافيّة. لم تفهم هيلين ما ردّده البعض. كاد أن يغمى عليها. فتحوا أبواب السيّارة الأربعة، جرّوا السائق خارجها وأمسكوا به. جلس على جانبي هيلين رجلان مسلّحان ببنادق آليّة، وقاد أحدهم السيّارة بسرعة جنونيّة، مبتعدًا عن الزحام.

في الطريق، قيّدوا يديها ووضعوا عصابة سوداء على عينيها. حاولت أن تقاوم. بلا فائدة. قالت لهم إنّها بريطانيّة. صرخت بالإنكليزيّة والعربيّة. كمّ أحدهم فمها ونهرها من خاصرتها طالبًا منها التزام الصمت. استسلمت.

تحوّلت العصابة السوداء على عينيها إلى شاشة بيضاء. صور كثيرة راحت تمرّ أمامها كشريط سينمائي. العجوز كارو. منار. أبو الرّيح. وليزا التي كانت تحذّرها. كانت السيّارة تمضي مسرعة. توقّفت السيّارة فجأة. سحبها أحدهم من يدها طالبًا منها النزول. أمسكوا بساعديها الرفيعين وقادوها إلى حيث لا تدري. مشوا قليلاً، ثم صعدوا بها عدّة درجات. تعثّرت مرّتين، فالتقطوها قبل أن تسقط.

صرير باب حديدي وصوت مزلاج ثقيل. نزعوا عن عينيها العصابة وفكّوا القيد عن معصميها. غرفة صغيرة تشبه حمّامًا جدرانه رطبة وأرضيّته لزجة. أحضر أحدهم بطّانيّة ورماها في الغرفة الزنزانة. أغلقوا الباب وأحكموا إقفاله واختفوا.

مصباح أصفر باهت كان يتدلّى من السقف العالي. كوّة صغيرة بشبك معدني. على الجدران كتابات ورسوم محفورة. طيور. ورود. قلب وأشياء أخرى لم تفهمها. تلمّست هيلين الجدار الرطب ودارت حول نفسها. الجدران كلّها تشبه بعضها، وحده الباب الحديدي يبدو مختلفًا.

لم تفهم ما يجري لها. دقّت على الباب الحديدي. ضربات وصراخ تتسرّب من حوافي الباب المتين. ارتفعت الأصوات وبدت قريبة منها. شعرت أنّها وسط الجحيم. دارت حول حوافي النفق الحلزوني المظلم وانزلقت لجوفه.

فتحت عينيها على قرقعة مفاتيح في الباب الحديدي. لم تدرِ كم من الوقت مضى. ساعة، يوم. أشار لها رجل ضخم بشوارب عريضة أن تخرج. كان معه رجلان. عصبوا عينيها وقادوها نحو جهة ما. مشوا قليلاً، ثم أدخلوها غرفة بعد أن طرقوا بابها. أجلسوها على كرسي، ثم فكّوا عن عينيها العصابة.

غرفة واسعة لا تحتوي سوى طاولة يجلس خلفها رجل في عقده الخامس. بدين بعيون جاحظة. مثل ضفدع كبير. كانت جالسة في منتصف الغرفة. بعيدًا عن الطاولة. ضحك الرجل وكشّر عن أسنانه. قام من محلّه ومشى نحوها، وقف قبالتها وهزّ بجواز سفرها في وجهها.

ـ تتقنين مهنتك جيّدًا . . عباءة ومتنكّرة . . لصالح أيّة قناة تعملين؟

نظرت هيلين في عينيه الطافحتين بالشرّ، طلبت منه الهدوء لتحكي قصّتها. فهمت أنّهم اشتبهوا بها كصحافيّة. كرّر الرجل سؤاله وصرخ في وجهها. بدت عاجزة عن إقناعه. كان يعيد سؤالاً محدّدًا. لصالح أيّة قناة تعمل. أنكرت الأمر. طلبت منه أن ينظر في جواز سفرها ليتأكّد من مهنتها. استهزأ الرجل من بساطتها في إقناعه. حيلة كهذه لا تنطلي عليه. تباهى بنفسه كيف كشف العشرات من الصحفيين والجواسيس الذين دخلوا البلاد بحجّة السياحة، أو على أنّهم علماء آثار وفنّانين. ليس أمامها سوى الاعتراف. وعدها أن يتعامل معها باحترام، ولن يمسّها أحد بسوء إذا قرّرت أن تساعد نفسها وتعترف.

عبثًا حاولت هيلين أن تقنع الرجل بقصّتها. يمكنه أن يسأل الفندق. كان يعود إلى سؤاله المحدّد. شعرت برغبة في البكاء. أمهلها لغاية اليوم الثاني لتفكّر وتقرّر. هزّ جرسًا كان على حافّة الطاولة. دخل الرجلان، عصبا عينيها وأعاداها إلى الزنزانة.

كانت مشلولة. مسلوبة الإرادة. تكوّرت على نفسها فوق البطّانيّة البنّيّة الوسخة. لم تكن قادرة على التفكير. نامت. فتحت وأغمضت عينيها كثيرًا. اختلط عليها الزمن، والليل

بالنهار. لا تدري كم من الوقت مضى على احتجازها! يومان. ثلاثة.. صار لها بعدٌ واحد يمضي بها نحو المجهول. بجانب الباب الحديدي قطعة خبز عليها بقعة داكنة. هي جائعة وقواها أخذت تنهار. انحنت فوق قطعة الخبز. اشتمّتها، ثم ذاقت بإصبعها من البقعة الداكنة. يشبه المربّى الذي ذاقته عند منار. أكلت بنهم.

طلبها الرجل ذو الشوارب العريضة مرّة ثانية. لم يسألها سؤالاً محدّدًا. طلب منها أن تسجّل عنوانها ورقم هاتفها في لندن ونبذة عن حياتها. التقطوا لها عدّة صور من زوايا مختلفة، وقبل أن يعيدوها إلى الزنزانة، سألت هيلين الرجل البدين متى يطلقون سراحها. ضحك وكشّر عن أسنانه التي تثير الإقياء، وقال:

ـ عندما تعترفين لصالح أيّة قناة تعملين.

حاولت أن تتحدّث إليه مرّة ثانية، فسحبها الرجلان ورمياها في زنزانتها. خفت الصراخ والضرب ولم تعد تسمع شيئًا. بدت الأمور هادئة. تعلّمت كيف تقضي حاجاتها في ثقب صغير في زاوية الزنزانة، وتشرب الماء من سطل بلاستيكي قذر. أصغت لنفسها كثيرًا. تذكّرت الأحرف التي كان يكتبها العجوز كارو على حواشي أوراقه الصفراء. تأكّدت من الورقة الصغيرة في أعلى السروال المنشور على حبل

الغسيل. كان يحمل اسم أمّها. تذكّرت محتويات الصندوق الأسود في القبو الرطب بدار منار الواسعة، ووجه أبو الرّيح وهو ينفث دخان سيجارته الثقيلة في عتمة المطعم الصيفي.

مرّت ساعات كثيرة. انفتح الباب. لم تكترث. هذا موعد الطعام. أشار لها الرجل بالخروج. عصبوا عينيها وقادوها بهدوء.

كانت المفاجأة الكبيرة عندما فكّوا عن عينيها العصابة. لم تصدّق أنّ الرجل الذي يجلس على الكرسي قرب طاولة الرجل ذي العيون الجاحظة، هو أبو الرّيح. قام على الفور من مكانه وأجلسها على الكرسي. ربت على كتفيها مطيّبًا خاطرها، ثم التفت إلى الرجل القميء وقال، بعد أن عضّ على شفته متأسّفًا:

ـ نعم، إنّها هي...

على الفور قام الرجل القميء فأحضر حقيبتها وساعة يدها، ثم جلس خلف طاولته وقال لها:

ـ نحن نأسف لما حصل. ما الذي قادك إلى ذلك المكان؟

راح الرجل يشرح لها عن الإرهابيين والعصابات التي تفتك بالبلد. أصغت هيلين من دون تركيز ولا اهتمام. قام أبو

الرّيح، واستأذن من الرجل الذي صافح هيلين مكرّرًا أسفه. بقيت هيلين صامتة.

بدا الوقت متأخّرًا. الحادية عشرة والنصف ليلاً. سيّارة بيضاء كانت بانتظارهما أمام باب كبير يحرسه عدد كبير من الحرّاس. انطلقت السيّارة. ظلّ أبو الرّيح صامتًا حتى وصلا أمام باب الفندق. طلب منها أن ترتاح على أمل أن يلتقي بها في اليوم الثاني.

ما إن دخلت هيلين الفندق، حتى هرول العجوز كارو نحوها. عبثًا حاول أن يستوقفها. اعتذرت ومضت نحو غرفتها.

ظلّت هيلين حبيسة غرفتها. اتّصل بها العجوز عدّة مرّات. اعتذرت. إلى أن دقّ عليها الباب. رجاها ودعاها إلى فنجان قهوة. كانت الصدمة أكبر من أن تمحى. بقيت صامتة رغم أنّ العجوز مازحها أكثر من مرّة، اكتفت بابتسامة شاحبة تردّ بها على خفّة دمه. كان يعرف أنّها أضعف من أن تحتمل ما جرى لها.

لاحقًا، طلبت هيلين منه أن يدلّها على أقرب مكتب لشركة طيران. فوجئ العجوز بطلبها. فكّر هنيهة. اعتصر جبينه كمن فشل في أمر ما، ارتجفت شفته المتدلّية. قام ووقف قرب النافذة المطلّة على الشارع. تظاهر بانشغاله بمراقبة الشارع المزدحم، مسح وجهه بمنديله القماش وعاد إليها أكثر تماسكًا.

ـ سأتحدّث مع الحارس ليرافقك إلى المكتب المجاور للفندق.

خرجت هيلين مع حارس الفندق إلى المكتب. عادت بعد قليل تحمل بيدها تذكرة سفر. فاجأت العجوز بموعد رحلتها. غدًا في السابعة صباحًا. حلب بيروت لندن. لم يصدّق أن تسافر بهذه السرعة. ازداد توتّرًا عندما نظر إلى ساعة البهو. كانت تقترب من التاسعة مساء. لم يبق على سفرها سوى ساعات قليلة. تزاحمت في رأسه الأفكار. لا يعرف من أين يبدأ. قامت هيلين من مكانها وتوجّهت نحو طاولة الاستقبال. طلبت منه أن ينهي إقامتها في الفندق. وقفت قبالته مثل أيّة زبونة عابرة. دفعت ما عليها من حساب وأكّدت عليه أن يذكّر سائق الفندق كي يقلّها صباحًا إلى المطار. استأذنته وصعدت باتّجاه غرفتها. وقف العجوز مذهولاً من لامبالاتها به. لم يجد تفسيرًا مقنعًا. لحق بها وقال لها وهي تصعد الدرج:

ـ غدًا صباحًا نشرب القهوة معًا...

دخلت هيلين غرفتها بهدوء. لم تشعل الضوء. نظرت من زاوية الباب الموارب جهة مطعم العندليب. كان أبو الرّيح يجلس وحيدًا. دوائر من دخان ترتسم فوق رأسه ثم تتبدّد في الضوء الخافت. سحبت الستارة. أشعلت الضوء. وقفت أمام

المرآة. تأمّلت وجهها. كانت شاحبة وارتسم حول جفنيها خطّ داكن.

فتحت الخزانة وأخذت توضّب ثيابها في الحقيبة. أمسكت بالعباءة، تفحّصتها كأنّها تراها للمرّة الأولى، رفعت كمّها فتدلّت الشراشيب. اشتمّتها ثم رتّبتها داخل الحقيبة.

ارتدت بنطالها الجينز وقميصًا أحمر. أغلقت الحقيبة ووضعتها بالقرب من الباب. هي الآن جاهزة للسفر. استلقت على السرير. الساعة تقترب من الواحدة. قامت وألقت نظرة على أبو الرّيح بعد أن أطفأت النور. كان لا يزال شاردًا مع دخان سجائره. تمدّدت على حافّة السرير وأخذت تفكّر بالأشهر التي مرّت على غفلة منها. أغمضت عينيها. تذكّرت كلّ الوجوه التي قابلتها. مرّت من أمامها كما لو أنّها في قطار سريع. بقيت على استرخائها. شاردة، لم تنم لحظة. جاءها صوت آذان الفجر. فتحت باب الشرفة على عجل. كانت طاولة أبو الرّيح فارغة وسكون ثقيل يلفّ الأمكنة. شعرت بدوار خفيف كأنّ النعاس تسلّل إلى جفنيها.

غسلت وجهها. الساعة المعدنيّة رفعت رنينها عاليًا. كانت قد ضبطتها على السادسة. سحبت مغلاق المنبّه، حملت حقيبتها وهمّت بالخروج. توقّفت كأنّها تذكّرت شيئًا. وضعت الحقيبة على الأرض، فتحتها عند الزاوية، مدّت يدها

وأخرجت سروالاً داخليًّا، أبيض مع خطّين باللون الزهري. علّقته على طرف السرير وخرجت من دون أن تغلق الباب.

كان بهو الفندق مُنارًا. وقفت قرب طاولة العجوز. التفتت يمينًا ويسارًا. لا أحد. أشار لها الحارس من خلف زجاج الباب أن السيّارة تنتظرها. دقّت بأصابعها على الطاولة. في اللحظة الأخيرة، انتبهت أنّ مفتاح القبو لم يكن في مكانه. حملت حقيبتها بهدوء ومشت.

ركبت السيّارة ومضت في شوارع المدينة التي كانت تستيقظ للتوّ من سباتها.

تمّت

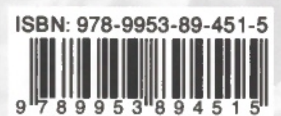


في فندق بارون الذي يحمل جزءًا من ذاكرة مدينة حلب، تحطّ هيلين، الفتاة اللندنيّة التي كانت ثمرة حبّ عابر بين والدتها كاترين وبين أحد زبائن الفندق من سكّان المدينة، في سبعينيّات القرن المنصرم. وهناك، تتعرّف إلى العجوز الأرمني كارو الذي لم يبارح الفندق منذ عدّة عقود، فتحاول نكش ذاكرته علّه يساعدها على معرفة ذلك السرّ الذي كشفته والدتها في رسالة كتبتها لها قبيل وفاتها بأيّام.

تقضي هيلين عدّة أشهر في مكان يبدو لها خارجًا عن سياق التاريخ والأحداث، إلى أن تكتشف أنّ المدينة الهادئة تخبّئ في جوفها بركانًا يوشك على الانفجار.

عبدو خليل: كاتب سوري من مواليد حلب عام ١٩٦٨. عمل في الصحافة وأقام عدّة معارض تشكيليّة وفوتوغرافيّة داخل سوريا وخارجها. له فيلم قصير بعنوان «الحذاء الأسود»، ويعمل حاليًّا مديرًا لإذاعة محلّيّة بعد أن لجأ الى تركيا. «فندق بارون» هو عمله الروائي الأوّل، وقد أُنجز في إطار «محترف نجوى بركات» في دورته الثانية (ربيع ٢٠١٣ - ربيع ٢٠١٤) التي أقيمت بالتعاون مع وزارة الثقافة في مملكة البحرين.

دار الآداب
هاتف: 01/795135 – 01/861633
ص.ب بيروت: 11-4123


ISBN: 978-9953-89-451-5